الفصل الأول:

البحث عن فرس إسطنبول

obeikandl.com

obeikandl.com

رجال ولا كأي رجال [٢]

لولا أني رأيتُهم لقلت إنه مجرد وهمٍ أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتين من خصالهم الكبيرة: الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصارا. وللصحابة فضلهم الذي لا يُبارى..

والهجرة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ كلمات تتلفظ بها الأفواه ولكن قلّما تعيها القلوب. فأن يترك الفتى حياة الراحة والدعة وبريق المدينة الجذاب، ثم يضرب في الأرض ليغوص في غربة بعيدة، يحمل في يده قنديلا من نور؛ بحثًا عن المستضعفين في بقاع الأرض، من أجل إطعامهم جرعة من رحيق الحياة، فيتحمّل في سبيل ذلك فناءَ نفسه وذوبان ذاته ونسيان دنياه... فتلك تجربة روحية لا يعرفها حقًّا إلا من عاناها، وإنها لعقبة دونها عقبات، تنتصب في مدارج المجاهدات.

من بلاد الأناضول تشرق شمسهم، ثم تتدفق أشعّتها نحو كل العالم خيوطا بلورية وهّاجة، تصل الأرحام القديمة وتذكي الحنين الجريح..

مهاجرون.. تركوا خلفهم كل شيء وانطلقوا كالخيول العارية، يفتحون الأبواب والنوافذ للمحاصَرين في كل بقاع الأرض، ويعلّمونهم

---

[٢] مجلة حراء، العدد: ١٣ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

obeikandl.com

كيف يستنشقون من جديد هواء الفضاء الفسيح، بعدما فقدوا إحساسهم بالحياة منذ قرون.

مهاجرون.. هجروا هذا الذي تذل له القلوب الميتة "متاع الحياة الدنيا وزينتها"، رغم تدفقه عليهم من كل الجهات.. وانطلقوا سائرين إلى الله، يوزّعون كلمات النور، ويبشرون العالم بالأمن والسلام، ويبعثون في قلوب الفقراء الأمل العظيم. كانت جحافلهم تتفرق بين الصحارى والجبال والأدغال والمحيطات... وقد تَكْبُو فرَسٌ هنا أو هناك، ولكن الطليعة أبدا تصِل إلى غايتها، وترفع راية النور فوق أعالي القمم الشامخة، فيشمخ الدين بهم ويعتزّ..

ظلال من جيل الصحابة أو نُسخ أخرى لستُ أدري.. ولقد رأيتهم وما كذبت عيني. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا.. فلله درّهم.. أيّ رجال هم!؟

أنصار.. فلقد نَصروا الخير، فكانوا أنصار العصر الجديد.. كلما رأوْا شمعةَ نور تضطرب في عاصفة الريح في أي بقعة من العالم، أسرعوا إليها غير مبالين بالصعاب واحتضنوها بمشكاة من زجاج بلوريّ، فتصير كأنها كوكب درّي، ينبُض بالجمال والبهاء..

جاعوا ليأكل غيرهم، وعَرُوا ليلبس فقراؤهم، وعَدِمُوا ليملك مستضعفوهم، وبكوا ليضحك إخوانهم... فكانوا حقّا يوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

أنصار.. اقتبسوا نصرتَهم استمدادا من نور المدينة المنورة، بُعَيد هجرة الرسول ﷺ إليها مباشرة، ولمّا يزل فرحُ أهل يثرب جديدا يتفجّر طربا.. من هناك أخذوا حقيقة نصرتهم، نديّة طريّة كغُصنٍ رطيب، يَنثر النّدى

والثمارَ اللذيذة.

هاجروا ونصروا، فأعطوا من ذاتهم لسِفار الهجرة، وأعطوا من ذاتهم لدافة النصرة، فما بقي لهم في هذه الأرض من شيء! ولكنهم في عالم الروح يملكون كل شيء، استنادا إلى لله الغنيّ الحميد.

مجانين.. يعشقون الخدمة اغترابا، من قَرِّ "سبريا" إلى حَرِّ جنوب إفريقيا.. ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلا أو جبلا من كل قارّات العالم إلا دخلوه، ووزّعوا فيه شُعاعات الصبح القريب.. يبتسمون للَسع الآلام، ويسعدون بعبور حقول الشوك الجارح فتسيل الدماء من أقدامهم، وتسيل الدموع من عيونهم، والقلب مسرور بالله!..

رجال.. لو تحدث عنهم كتاب قديم، لقلنا إنها مبالغة من مبالغات كتب القصص والطبقات والمناقب.. لكنهم يعيشون "الآن" في الحاضر والمستقبل، فها هم أولاء أمامك نماذج حية من الشوق الملتهِب والفاعلية العظيمة.. فأكرِمْ بهم وأنعِمْ من شباب وكهول.. أحيَوْا فينا أمل الحياة، ومدّونا بيقين الشروق الجديد.. فكانوا مِصداقا لكلمات النبوة، في أنّ الله سينصر هذا الدين نصرا عالَميًّا، حتى لا يبقى بيتُ وَبَرٍ ولا مدَر إلا دخله..

ولقد رأيتُ أنوار الأسماء الحسنى تنعكس على عيونهم، وتتدفق من بين أيديهم.. فيتبعون هُداها منجذبين بقوتها إلى تحقيق قدر الله العظيم، في إحياء الأرض بعد موتها بالغنى والكرم والجود. ترى الواحد منهم أمّة في رجل أو رجلا في أمة.. قد تنبهر إذ تقع عيناك على أي طيف منهم فتقول: "وَيْ كأن ليس له مثيل"، فإذا رأيتَ الآخر أنساك جمالُه بهاءَ الأول. جمعوا أخلاق الخير والفضيلة كلها. نظرة واحدة فيهم تغنيك عن قراءة كتب الفلسفة والأخلاق وخيالات المدينة الفاضلة. فهؤلاء لا يتكلمون

عن الأخلاق، بل هم الأخلاق نفسها تمشي على الأرض، في زمن صار الخلق الكريم فيه قطعة مهملة في متحف التاريخ.

هل تريد أن تكون منهم؟.. فكّرْ، فكّر قبل أن تقول "نعم".. فإنما هي كلمة تقولها، وإنها لدعوى عريضة، دونها اقتحام العقبة.. وما أدراك ما العقبة؟! أن تبيع نفسك لله كاملة، فلا يبقى منك لك شيء، أيّ شيء.. تستسلم لمراد الله حيث ما سارت بك مقاديره، حتى تُدفن بذرتك في أيّ نقطة من العالم، بعيدا بعيدا عن وطن الأُنس والأهل والأحباب.. زادك الوحيد، وغذاؤك الفريد "ذكر الله" و"الاستمداد من نوره العظيم".

أن تكون منهم معناه أن ينساك الناس كلهم، ويذكرك الله وحده، وأن تخرج من الدنيا وأنت ما تزال حيًّا تعيش فيها، تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، فلا ترى في نفسك ولا لنفسك شيئًا.. وترى أقرانك من معارفك القريبين، ممن تضخّمت عندهم ذواتهم، ولم يستطيعوا أن يتخلصوا من أغلال التراب، ولا أن يُفْلِتوا من شباك الأسباب، يرتقون في درجات الوهم الدنيوي، فيُطلّون عليك من أبراجهم العالية، بما يملكون من مناصب وألقاب! وأنت تمشي على التراب حافي القدمين، فقيرا من كل شيء، إلا من مدد الله العظيم.. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾(الفرقان:٢٠).

أتريد أن تكون منهم؟.. "نعم"، تلك كلمة سهلة النطق، لكنها تجربة مريرة.. ومَن قال: "إن النار ليست لها خاصية الإحراق"، فليَمُدَّ إليها يدَه.. فهل أنت مستعد لأن تحترق حتى يصير جسمك رمادا، فتذروه الرياح في كل قارات العالم، ذرّاتٍ متناثرة هنا وهناك، ما سقطت منها واحدة على تربة قاحلة إلا جعلَتها تخضرّ، وتُنْبِت من كل زوج بهيج.!

هؤلاء هم عماليق العصر، ونماذج الإنسان الحق الذي ينتظره العالم

منذ زمان بعيد.. فهل آن الأوان لتستعيد الأرضُ أمانها الذي أودعه فيها سيد الخلق محمد ﷺ؟!.

حاصَروا ظُلْمَ البنادق المتارس بالمعاهد والمدارس، وأطفؤوا نيران الفتن والحروب بالكلمات والحروف.. فكل مدرسةٍ يَبنونها هنا أو هناك تغدوا شجرةً خضراء، ما تزال تفرّخ حولها فسائل منها تَنمو ثم تنمو، حتى تصير البلاد أشجارا وأشجارا، فإذا بغابة الخير تَخنُق صوتَ الرصاص البغيض، وتقضي على رائحة البارود النتة..

معلّمون.. انتشروا في كل مكان، يعلّمون أطفال العالم منطق الطير وتراتيل العصافير، ويرسمون على السبّورات الخضراء أمامهم أحلامَ الغد الجميل ومعالم الطريق إلى الجنة. فللطفولة المتخرّجة من بين أحضانهم -عَبر كل قارّات الأرض- نشيد واحد، يبشر الأمة بالخير والسلام..

ملائكةُ الذكر تحبُّهم، فلطالما استمعت إلى أهازيجهم الشجيّة.. وملائكة العلم تعرفهم، فلطالما حملت بأجنحتها طلائعهم، وهي تضرب في الأرض نحو غابات أسطرالْيا أو صحارى آسيا أو أدغال إفريقيا أو نحو ضباب الغرب البعيد.. ليطلقوا شعاع النور من فوق ناطحات السحاب.. معلّمون عُزَّل، إلا من سلاح التربية والتعليم! يغامرون باقتحام المخاطر في كل مكان، فيرحلون بصدورٍ عارية، ووجوه تبتسم أمام فُوّهات الموت! ولربّما خرقت بعضَها رصاصةُ غدرٍ أو نائبةُ دهرٍ، فلا يرجعون القهقرى أبدا!..

سادتي!.. أنتم المجاهدون حقّا، فعليكم من الله السلام.

مستشفى موصول بالسماء [٣]

هو مستشفى.. لكنه ليس كسائر المستشفيات! إنه مستشفى مختلف تمامًا. فبمجرد ما تدخل بوّابته الأولى تشعر بدفء روحيّ جميل تمامًا، كما يشعر المؤمن بدفء الإيمان حينما يدخل صفّ الصلاة.. كل شيء فيه يشير إليك بتحية "السلام"؛ فتغمرك الطمأنينة العميقة والأمان..

ليس لأنه فقط متربّعًا على شاطئ من أجمل شواطئ إسطنبول، مُطلاّ بنوافذه الفسيحة على بحر مرمره وجزوره الجميلة، ولا لأنه مجهَّز بأحدث الآلات الطبّية، ولا لأنه جمع من كل أقسام التخصّصات الطبية وسائر أنواع التداوي والعلاج، ولكنه علاوة على ذلك كلِّه لأنّه يضمّ بين جوانحه الدافئة أعظم شيء وأهمّه في مجال الطب والتداوي، بل في مجال الحياة بأكملها: "الإنسان".. الإنسان بكل مراتبه واختصاصاته: الأطبّاء، والممرّضات، والمساعدون، والعاملون، والأعوان. كلهم جميعًا يمثّلون وجهًا مشرقًا بالنور لهذا المستشفى العظيم. نظَراتهم تحدّثك عن مدى الحب العميق الذي ينبض في قلوبهم تجاه مرضاهم، وتُجاه كلِّ من

---

[٣] مستشفى سماء هو المستشفى الذي عولج فيه الدكتور فريد الأنصاري وصعدت منه روحه الطاهرة إلى جوار ربها رحمه الله رحمة واسعة. ونشر المقال في ملحق خاص أعدّته مجلة حراء تحت عنوان "فريد الأنصاري.. رجل الفكر والقلم" بمناسبة ندوة وفاء للدكتور رحمه الله في فبراير ٢٠١٠م في الدار البيضاء بالمغرب. (المحرر)

obeikandi.com

يطرق بابهم لاستشارة طبّية.

إن هذا الروح العظيم الذي يفيض من هذه القلوب المتيَّمة بحب الخير، الفانية في خدمة الإنسان، جعل هذا المستشفى يمتلئ رَوْحًا ورَيحَانًا يملأ قلوب المرضى والزائرين بالأمل العظيم، ويطرد عنهم اليأس والقنوط إلى الأبد.. بل إنني قد رأيتُ -وأنا أحد نُزلائه لفتَرات عديدة- النورَ يفيض بقوّة من شرُفاته ونوافذه، فيمتدّ كغُدران الكوثر؛ ليَرويَ الأحياء المجاورة له، بل ليروي مدينة إسطنبول بأكملها، بل -ولِمَ لا- بلاد الأناضول جميعًا. والسر في ذلك أن الحب الذي تتدفق جداولُه من قلوب طاقَمه الإداريّ والطبّيّ والتمريضيّ لا يقف عند حدود بناية المستشفى، ومَن ذا قدير على جعل السدود للحبّ والجمال إذا تدفّقت أنهارُهما؟!

نعم، هو مستشفى، لكنه ليس كسائر المستشفيات!.. إن المريض إذْ يلقّى العلاج يشعر بلمسات يد الطبيب تبثّ في جسمه شعورًا بالسعادة الغامرة والراحة الشاملة، فتتواصل القلوب بين الطبيب والمريض بلغة غير قابلة للكتابة والتوصيف: إنها لغة الإخلاص.. هذه اللغة التي لا يُتقنها إلا من تعلم بمدارس الروح، وأدلج بناشئة الليل الساجي، ورتّل بوجدانه الجريح أحزان المستضعَفين ترتِيلاً..

أطبّاء وممرّضون وعاملون من طراز آخر، فنَوا عن ذواتهم ومصالحهم الشخصية وحظوظهم الدنيوية، وقطعوا الصِّلات مع دُنيَا الشّهوات؛ فكانوا خيرَ خدّام للخير والمحبة والسلام، يوزّعون أقراص الأمان والأمل قبل أقراص العلاج والتداوي الحسّيّ. فما من مريض تلمسه أيديهم المباركة إلا وشرِب بروحه من هذا الوِرد الكوثريّ الصافي، فأنّى للمرض بعد ذلك أن يسكن بجسمه أو بقلبه؟! فلله درّهم أيّ رجالٍ هُمْ؟!

كل المستشفيات عندما تدخلها تزكمك رائحةُ الأدوية وأنواع الكحول ومواد التطهير، فربما انقبضت النفس من هذا أو ذاك.. بينما الداخل إلى مستشفى "سماء" بمجرد ما يضع خطوته الأولى بين جوانحه تغمره رائحة الجنّة، ويَبهَرُه ربيعٌ ملائكيٌّ امتزج أرِيجُه بأنداء الروح..

كل شيء ههنا مبتسم، يفتح أحضانه منشرح القلب لاحتضان الجِراح الحزينة والأضلاع المنكسرة. بسماتٌ هي ولكن ليست ككلّ البسَمات، فكثير من الأطباء والممرضات في مستشفيات الدنيا، يرسمون على وجوههم بسَماتٍ تُرهب المريضَ وتُخيفه أكثر مما تؤمّنُه وتطمْئنُه. لأنه يرى أنّها ليست سوى بسماتٍ صفراء، تفرضُها المهنة وصناعة التطبيب والتمريض.. بسَماتٌ ميّتة لا رُوحَ فيها ولا رُواء. ذلك أنهم مجرّد موظَّفين أشبهُ ما يكونون بمُذيع الأخبار بالتلفزيون، إذ يصف الحوادث الرهيبة وأخبارَ الحروب والموتِ والدمار، فيرسُم على وجهه بعدها بسمةً باردة.. لكنّه ههنا في "سماء" يرى البسَمات تنتشر هنا وهناك كالشجَيرات الخضراء، وتتفتّح أزاهيرها زكيّةَ الأريجِ، كرائحة الورد البرّيّ تَجذب القلوب من بعيد.

لقيتُ شيخًا مريضًا مرةً بأحد مصاعد المستشفى، رآني فاستغرب لباسي فعرف أنني من بلد بعيد؛ فسأل صاحبي، فأخبره بقصة السفر في كلمات، فقال لي الشيخ: "ستُشفى بإذن الله، لقد أصبتَ المكان المناسب!".

إنّ سرّ النجاح الباهر هو في إخلاص هؤلاء الفتية الذين آمنوا بمُهمّتهم النبيلة مُخلصين على أتمّ ما يكون الإخلاص؛ فنظروا بعُمق بصيرتهم إلى المريض وشاهدوا فيه "الإنسان" بما يَحمل من خَوالِجَ نفسيّة وآلامٍ روحية، فأدركوا مواطنَ العلّة ببصائرهم قبل أي جَسٍّ أو أيّ فحص أو

تحليل لـمُكوِّنات الطين والحمإ المسنون.

إن الطبيب الحقّ إنما هو الذي يعالج المريض إنسانًا كلاًّ لا يتجزَّء، روحًا ومادّة؛ لاَ الذي يراه أنه جهاز من الميكانيك تعطّلتْ بعضُ قطعه، فجعل يُصلّحُها أو يبحث لها عن قطعة غيار!.. إن مثل هذا الطبيب -حتى ولو نجح في إصلاح هذا العطب المادّيّ المحسوس- فلن ينجح أبدًا في تذويق مريضه طعمَ الشفاء الكامل ولا لذّةَ السعادة والانشراح.. وأنّى لميّت الروح أن يُعالِج جريح الروح؟!

وإن كنتُ أَعجَبُ فإنما أَعجَب لطبيبٍ يُشرق شُعاعُ الشمس البلّوريّ على مكتبه فيُوصد دونه الأبوابَ والنوافذَ، ولا يَغرِف من جَداوله بَهجةَ المكان وإشراقَ الروح! ذلك أن المريض إذ يُقبل على المستشفى، يُقبل منكسرَ الكبرياء، مُحطَّمَ الأنانية، مُستسلمًا روحًا وبدَنًا بين يدَي الأطبّاء والممرّضين، تَمامًا كما يَدخل العبدُ المُذنبُ إلى المسجد فيَجلس بين يدَي الواعظ مُستسلمَ الروح، يَملأُه الحزنُ والأسَى على ما فرّط في حقّ ربّه، راجيًا أن تَصدُر من الواعظ كلمةٌ واحدةٌ تُرجِعُ له الأملَ، وتَدلّه على مسلكٍ من مسالك التوبة.

فإضاعةُ الطبيب لفُرصة علاج وجدان المريص المُستسلِم بين يدَيه قبل علاج بدنه، هي تمامًا كإضاعةِ الواعظ لفُرصة الهداية لمِثل هذا العبد المُنكسر المُستسلِم بين يدَيه. ورُبّ طبيبٍ كان في الدلالة على الله أبلـغَ من عشَرات الوُعّاظ المُحترِفين، ولَو لم ينطِق بكلمةٍ واحدةٍ من قاموس الإصطلاحات الدينية.. كلّما نطَقَتْ لُغةُ الروح الخفيّة بقلبِه، فتكلّمَت عيناهُ ولمَساتُ أنامله إذ يُباشرُ مريضَه بالفحص والعلاج. إن الخُلق الصامتَ في المؤمن لَيُشبه النهر المتدفّق بصَمطٍ بين الروابي لِعُمقِ غَوره وبُعد قراره،

فهو أبلـغُ في الوصول إلى أبعد السهول وأقوى في إرواء المِساحات وأسرع في قطـع المسافات..

إن الطبيب الحقّ يُعطي أكثر مما يأخذ، بل يعطي وفي الحقيقة لا يأخذ شيئًا؛ لأن المال الذي يستفيده لضرورة عيشه، لا يُساوي ولا نَزْفَةً واحدةً من روحه، إذْ يقتطـع منها ضِماضاتٍ لمريضه الجريح..

كلُّ المرضى إذا دخلوا المستشفيات دخلوا ظلومات الحزن والاكتئاب، ومن ثَمَّ تَتعلّق قلوبُهم الليلَ والنهارَ بلحظة الخروج والانفراج.. إلا في "سماء".. فالقلوب ههنا بمجرد ما تتمدّد على أسرّتها تُوصَل مباشرةً بحبالِ النور، فتُربَطُ مباشرة بالسماء؛ فتتلقّى لطائفُهم دواءَ الملَكوت العُلويّ، قطَراتٍ مُتواترة، تَمنحُهم الأمل وتجدد لهم الحياة، تمامًا كما تُقطّر قارورة السيروم في دمِ المريض الحيويةَ والنشاطَ. حتى إذا ذاقوا ما ذاقوا؛ تعلّقوا بهذا المستشفى وخُدَّامِه؛ فنسُوا ليس لحظة الخروج فحسب، بل دُنياهم وأعمالهم وأموالَهم، وفي كثير من الأحيان حتى أبناءهم! فدفءُ الأسرة ههنا يُحيطهم، ومحبّة الأهل ههنا تَغمرهم، متدفّقة عليهم بصدق الشعور من كلّ طبيب أو ممرضة تطرق بابَهم. خُلُقٌ رفيع متساوي البصَمات، يَرعى المريضَ من الطبيب إلى عاملةِ النظافة.

طبعًا، لم يَنشأْ هذا المستشفى من فَراغ، ولم تَنبُتْ شجرتُه الطيبة عبثًا، بل كان وليدَ خدمة ربّانية، فَنِيَ رجالُها في خدمة الخير، واحترقوا بقدح زناد النور في كلّ مكان! لم تَكن بنايتُه من أحجار وإسمنت وحديد، بل كانت من أضلاع العاشقين، وسواعد الفاتحين، ودماء الشهداء والصدّيقين..الذين وهَبوا أرواحهم لله، فبذلوا النفْسَ والنفيس، وتبرّؤوا من حظوظهم الدنيوية، واغتربوا في الفَيافي والمَنافي، ما بين بلاد القرّ

إلى بِلاد الحرّ؛ لتَرتفع راياتُ السلام هنا وهناك، مدارسَ ومستشفياتٍ تُبشّر العالَم المُظلم بأن في الدنيا بقيّةَ خيرٍ، ستُشرق على كل الأرض بعد صُبحٍ قريب!

obeikandl.com

رَجُل الأَسرار [٤]

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحدًا!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَبًا!

فَتْحُ اللهِ فَارِسٌ ليس تلين عَرِيكَتُهُ، ولا تضعف شَكِيمَتُهُ! ولَصَوْتُهُ في الكَرِّ أشدُّ من فرقعة الرعد! يقاتل في النهار حتى تذوب الشمس في دماء البحر، فإذا خَلاَ لِأَشْجَانِ الليل بكَى..!

مَكِينُ الوثبة كالأسد، حادُّ الرؤية كالصقر، رهيب الصمت كالبحر، إذا سكتَ خَطَب، وإذا نطقَ الْتَهَب! وإنه لَيَشِفُّ كالزجاجِ إذا هو كَتَب!

كل الناس يعرف فتحَ الله، وكل الناس يسمع فتحَ الله، ولكن لا أحد يعرف ما يريد فتحُ الله! فلم يزل سِرُّهُ في صدره، يَقْبَعُ في الأعماق مثل اللؤلؤ المكنون!.. ومن يدري؟ فلعله فارسٌ لم يشرق بَعْدُ زمانُه! ولاَ حَانَ وقتُه وإبَّانُه! وأي بلاء أشد على المرء من أن يعيش قَبْلَ أَوَانِه؟ ويعاشرَ

---

[٤] من رواية "عودة الفرسان" للأستاذ فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.

obeikandl.com

غيرَ أهلِ زمانه؟

ولم يزل فتح الله يرسم ملامح الماضي في لوحة المستقبل، فينفخ فيه؛ فيكون واقعًا بإذن الله! كلما كَتَبَ مقالاً أو خَطَبَ خُطبةً؛ تشكلت كلماته صورًا لقوافل الصحابة الكرام، ولجيش محمد الفاتح، يزحفون صَفًّا من خلف غبار الغيم، مَطَرًا يهطل من أُفُقِ بلاد الأناضول على كل العالَم!

فَتْحُ اللهِ لاَ يملك من هذه الدنيا سوى ملابسه القديمة، ومحفظة أحزان صغيرة تصحبه أَنَّى حَلَّ وارتحل، لم يزل يحتفظ فيها بثلاثة مفاتيح عتيقة! الأول: مفتاح "الباب العالي" في إسطنبول، والثاني: مفتاح "باب الحِطَّةِ" في المسجد الأقصى، والثالث: مفتاح جامع قرطبة في أندلس الأشجان!

رجلٌ وحده يسمع أنينَ الأسوار القديمة، ونشيجَ الريح الراحل ما بين طنجة وجكارتا! وبكاءَ النورس عند شواطئَ غادرتها سفنُ الأحبة منذ زمان غابر، ولكن لم يشرق لعودتهم بَعْدُ شِرَاعٌ!.. فيبكي!

رجلٌ وحده يسمع صهيلَ الخيل القادمة من خلف السُّحُبِ، ونداءَ الغيبِ المحتجِبِ، إذ يتدفق هاتفه على شاطئ صدره، فينادي مِنْ عَلَى منبره: "ألاَ يا خيلَ الله اركبي!.. ويا سيوف البرق الْتَهِبِي!"..

ويَرَى ما ليس يُرَى.. فيبكي!

فتح الله سيرةُ بكاء! لقبه الأسري: "كُولَنْ"، ومعناه "الضحاك" باللسان التركي، وهذا من عجائب الأضداد، ومن غرائب الموافقات أيضا! فهو بَكَّاءُ الصالحين في هذا العصر، لكنه ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهر الربيع في حدائق الأطفال. ما رأيت أحدا أجرى دمعا منه، ولا أكثر وَلَهًا.. وكأنما دموع التاريخ جميعا تفجرت أنهارها من بين جفنيه!..

ولقد أخطأ من ظنه يبكي ضعفًا أو خَوَرًا، وإنما هو جَبَلٌ تشققت أحجاره عن كوثر الحياة الفياض، فبكى!..

الوعظ سر من أسرار فتح الله! فلم يزل منذ طفولته يبكي بمجالسه؛ فتبكي لبكائه كل عصافير الدنيا! ولقد رأيته يبكي طفلاً وشابًا، ثم كهلاً وشيخًا! ولم يزل يبكي ويبكي.. وما جف لتدفق شلالاته نَبْعٌ! بدموع مواعظه الْحَرَّى سقى فتحُ الله كل غابات بلاد الأناضول! وبها أروى عطش الخيل، وأطعم فقراء الليل! وبوابلِ بوارقها سقى كل صحاري العالم! ولقد عجبتُ من أي جبال الدنيا تخرج منابعه؟

ورحلتُ إلى طفولته؛ فلعلي أعثر على بدء تلقيه كرامات الأسرار وكيف؟

ولقد رأيتُ يا سادتي عَجَبًا!.. كانت أسراب النحل تقتات من مَجْرَى مدامعه، فتنشئ آلاف الخلايا في كل مكان!..

فتح إسطنبول

إسطنبول هي أم المدائن، مَنْ مَلَكَهَا مَلَكَ الأرض كلها، ومن خسرها خسر الأرض كلها..!

عندما حاصرها محمد الفاتح، كان لحصاره مراحل ومكابدات، ثم جاء نصر الله والفتح.. ومن قبله جاهد الصحابة والتابعون، وقرونٌ من المسلمين لفتحها، ولكن قدَر الله له إبَّان.

عندما حل عصر الظلمات، كانت إسطنبول في حاجة إلى شهقة من نور...

البَكَّاءُ الوحيد في هذا الزمان هو محمد فتح الله كولن... لم يكن بكاؤه

عويل عجز، ولا ندب يأس، ولكنه كان لغة أخرى... لغة تقدح النور في الصخر المطل على العالم من على مشارف الجبال الشاهقة... فإذا الطيور تقذف من حناجرها بروق البشائر الكاشفة لزمن الظلام!

كان يوم السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٧٧... أول موعد لومضة البرق الأولى في إسطنبول.. وكان الحَمَام على موعد مع بكاء فتح الله في مسجد "يَنِي جامع"، أو "الجامع الجديد". هناك على شاطئ البوسفور، ومن خَلْفِ عشرات المآذن القديمة، والقباب المحتضنة للألم العتيق؛ هناك قذف فتح الله شهقة النور الأولى في عصر الظلمات الأخير.. فإذا بالنوارس تتلقف وميضَها لهبًا يهيج أحزان التاريخ... ويضرب البرقُ كل آفاق إسطنبول، فتفزع خفافيش الظلام في كل مكان!

تلك كانت جرعة أولى، ثم عاد فتح الله إلى حصنه الأول في إِزْمِير... لكن إسطنبول ذاقت جمال النور، فجعلت المآذن والقباب تهتز أجنحتها شوقًا إلى البُكاء الشهي، وفتح الله أب رحيم، تهزه أنات المستضعفين، فلا يملك إلا أن يستجيب لكل أذان خَرَقَ جدران القلوب: أن "يا خيل الله اركبي"!

ويركب فتح الله أهوال الليل، فيرحل إلى إسطنبول مرة أخرى... وينزل ضيفًا على باحات المساجد السلطانية، الواحد تلو الآخر، "مسجد السُّلطان أَحْمَد" العظيم، و"مسجد السَّلَيْمَانِيَّة"، ومسجد "والدة السُّلْطَان".. إلخ. ثم يجد الجماهير المؤمنة العطشى تمد أكفها مزدحمة على منبر الوعظ، وهي تنتظر تدفق صنبور النور، فتغرف من شهيق فتح الله في كل مساجد إسطنبول، حتى ما بقي نورس أو حمام لا يعرف نغمة نوحه الجميل. وأنبتت دعوة فتح الله أشجارها في كل أرجاء إسطنبول،

وتشابكت الأغصان تحتضن مدارس الخير بين عمران المدينة الأميرة، ومن ثم بدأ النور يمتد إلى كل بلاد الأناضول، حتى لم يبق مكان إلا سكنه وجُد الشوق إلى ميلاد الصباح.. وصارت المدائن والقرى تتجاوب مواجيدها، أصداءً تتبادلها الجبال والشطآن، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

ثم صارت إسطنبول عاصمة حقا، وفتح الأمير الجديد الباب العالي من جديد... وأبت عاصمة الروح إلا أن تحتضن كرسي القيادة للإشراف على خدمة الدين في كل البلاد. ومن ثم فمنذ سنة ١٩٩٦، رحل الأستاذ فتح الله من إزمير إلى مدينة إسطنبول بصفة نهائية، وتربع على كرسي الدرس بمقر إقامته الأثير، في الدور الخامس. ومن هنا صارت الكتائب والسرايا كلها، تنطلق نحو مغازيها من مدينة إسطنبول. وماذا غير إسطنبول من المدائن قدير على إيصال صوت الفجر إلى كل العالم؟

الفتح الأكبر.. وانكشاف السر المكنون

وأصبح فؤاد أم موسى فارغا!

فلم يكن من السهل على طلاب فتح الله في إسطنبول، ولا في كل بلاد الأناضول أن يبتلعوا خروج أستاذهم محمد فتح الله من البلاد. لقد كان الرحيل قاسيا، وكان أثره في البداية مزلزلا، لكن صرح الدعوة كان رغم ذلك أقوى من يتعرض للتصدع بله الانهيار بمثل هذا الحدث وإن كان جسيما! نعم لقد اهتزت صوامع إسطنبول وقبابها، ولكنها لم تسقط! فلقد بنى فتح الله خدمته الإيمانية على نظام المؤسسات، وجعلها قلوبا تنبض بحب الله ومعرفته، ثم ربطها بحبل السماء ورحل. صحيح أن شخصيته

كانت محورًا فكريا رئيسا للدعوة، وموردا روحيا متفجرا بالأشواق، ترتوي منه ملايين القلوب العطشى، لكنه مع ذلك كان واعيا تمام الوعي بأن الأشخاص لا بقاء لهم إلا بالله، ومن ثم ربط دعوته كلها بالله، فعاش لذة الحضور في ألم الغياب.

فمن إسطنبول إلى كل بلاد الأناضول، انطلقت أشرطة "هُوجَا أَفَنْدِي"، اللقب المفضل عند الأتراك للأستاذ محمد فتح الله كولن، وهو لقب بمعنى: "السيّد الأستاذ"، أو نحوها من العبارات. انطلقت الأشرطة تجوب الأزقة والدروب، وتومض بأسطواناتها من على رفوف المكتبات، حتى لم تكد تترك بيتا ولا متجرا إلا دخلته، وأشعلت بين أضلاعه لوعة الأشواق!

وتفجرت أصداء كل المواعظ والدروس التي ألقاها فتح الله تحت قباب المساجد السلطانية وغيرها، منذ أن بدأ خدمته الإيمانية، إلى ساعة هجرته البعيدة.. فصارت تعمر كل فضاء البلاد.

ولقد عجبتُ يا سادتي كيف أن الأصداء القديمة لكلماته الفوارة، انبعثت مواعظ حية، كأنما هي الآن تُلقى من على منبر هذا المسجد أو ذاك! ولقد رأيتُ الناس يتوافدون على بوابات الجوامع الكبرى أفواجا، وللطيور اصطفاف عجيب على شرفات المآذن والقباب.

وصار لفتح الله ألف طيف وطيف، وغدت مواعظه أرغفةً تغذي ملايين الفقراء والمستضعفين من الأتراك في العالم! وسُقِطَ في أيدي الجبناء، وارتدت خفافيش الظلام إلى جحورها مذعورة من تدفق النور.

لم تكن مجردَ مواعظ، بل كانت بما بث فيها صاحبُها من أشجان، مرايا يتجلى عليها الزمان القديم، وهو يتدفق بكل عنفوانه في الحاضر اليقظان!.. كان التاريخ يزهر حدائق خضراء في قلوب الآلاف من

المستمعين المزدحمين على مصادر الأصداء كطير داود اللاهجة بالأذكار.. كان بكاء الواعظ فتح الله يهيج شهيق الخيول الأصيلة، فيرتفع الصهيل مكبِّرًا في كل مكان!

ويَصُفُّ الأميرُ كتائبَها الواحدةَ تلو الأخرى..

ها هي ذي واقفة بين يديه، تلقي تحية السلام والإذعان، وتنتظر إشارة الانطلاق إلى أرض الله الواسعة، فهذا زمان فتوح البلدان بفتوح القلوب.. فالتاريخ الآن يصب في المستقبل المشرق بآلاف البشائر..!

ثم كبَّر فتح الله:

- الله أكبر..!

وانطلقت الجياد الأصيلة، وماء الوضوء ينتفض من أعرافها المشوقة بريح الجنة.. كانت الكتائب تنطلق مأذونة، الواحدة تلو الأخرى..

ولقد رأيتُ يا سادتي، لقد رأيت..

رأيتُ الكتائبَ من كل فارس عالي الهمة، مشرق الجبين، رأيتها تنطلق نحو كل قارات الأرض!

كتيبة خالد بن الوليد، وكتيبة علي بن أبي طالب، وكتيبة القعقاع بن عمرو التميمي، وكتيبة عمرو بن العاص، وكتيبة أبي عبيدة بن الجراح، وكتيبة سعد بن أبي وقاص.. وكتائب أخرى من جيل النور الأول، لم يكن يحجبها عني سوى كثافة الشعاع!

ثم رأيت كتيبة عقبة بن نافع، وسمعت صهيل حصانه الكريم يقصف موج المحيط! وشاهدت خيول طارق بن زياد، ورأيت سفنه ترسو على صخور الأندلس، ثم تحرق أشرعة الهزيمة والفرار.. ورأيت النصر يتقدم في الزمان الجديد، أَمْنا وسلاما على كل العالم.

ورأيت كتيبة صلاح الدين، وشاهدت فتيان فلسطين بين يديه، ينسفون رماد العجل في اليم نسفا، وينهون غطة الكابوس الذي كان.

ورأيت كتيبة محمد الفاتح، تعلن تحقق الوعد المحمّدي، وشاهدت النور يتدفق نحو جميع جهات الأرض، فلم يَبْق بَيْتُ وَبَرٍ ولا مَدَرٍ إلا دخله شعاع جميل!

ثم رأيت..

رأيت فتح الله وسط الجموع، كان يشير بإصبعه عاليا نحو منبع الأسرار..

كانت دموعه تشرق مسرورة بمطالع الزمان الجديد، وكان يحمل مفاتحه القديمة، ومحفظته الصغيرة.. ثم تَرَجَّلَ عن فرسه، وجعل يمشي الهوينى بين الصفوف، حتى اعتلى منبره، وأعلن للناس وحدة المطالع في كل الجهات..

وهنا أعلن فتح الله للعالم سره!

في مجلس من مجالس الدور الخامس المطل على كل الدنيا، سئل فتح الله:

- يا سيدي! وكيف رأيت ما رأيت؟

قال:

- عندما تصفو الدمعة من الأكدار، وتخلص الأشواق لبارئها، تنكشف الأستار عن الأنوار..

فتنجلي معالم الطريق للسائرين!

البحث عن فرس إسطنبول [٥]

إلى وارث السر الأستاذ "فتح الله كولن"

هل غادر الغديرُ نبضَ صخرِهِ؟
أم هل جفاه غاضبا سناءُ برقِهِ؟
فأيْنَها.. تلك التي كانت هنا،
ما بَين مائه وعطره؟
تشرب من أشعّة الندى...
وتلثم الثَّمر..!
أليس ههنا رأيتُها تسكن في معابر الشَّجر؟
وذات غفوةٍ.. تبددتْ أطيافُها خلف الرّبى..
كأنما امتطت شعاعَ الشمس ثم غربت،
فأصبحت أفئدة الأشجار فارغة!
وأرسل الغديرُ بينها أغرودةَ الحَزَنْ!
قيل لي: مرّت بها الخُيول عند بابة السُّرى
وركضت يسكنها الصهيلْ!

---

[٥] مجلة حراء، العدد: ٤ (يوليو-سبتمبر ٢٠٠٦).

obeikandl.com

وقيل لي: قد رُئِيَتْ عند المساء عاريةْ
تدخل بحر "مَرمَرَة"،
وتركتْ على الرمال حافرًا مُرَقَّمًا،
وأثرا يشبه غصن شَجَرة..

يا سيدي البوسفور!
بِرَبّكَ الذي بَرَاكَ بَين خافقَين!
تَنْقُلُ من رسائل المحبة السلامْ،
أقسمتُ أن تضمّني إليكْ!
مرجانةً من نورْ،
أو صَدْفَةً تُخرِج من لُؤلُئها
هديةً لها؛ لعلها تعرفني،
فتشرق "إستطنبول" من جديد!.
وقيل لي: قد خرجتْ من متحف قديمْ،
واخترقت -يا عجبا- كلَّ العيون،
وأنشدت على "أبي أيّوب" حزنَها،
حتى بكى الحمامُ حولَها،
واصَّدَّع السورُ القديم!
فلم يُعِرْهَا أحدٌ بعضَ الأسى..! ثم اختفتْ!
وقيل لي: قد رحلتْ.
وزعموا أن فتًى شاهدها تركض في "إزمِيرْ"،
ثم اختفت بين الكرومْ!

وَيْحي، أنا المعذّب المجنونْ!
أكُلَّمَا التقطتُ من أخبارها خيطَ السّنَا،
خطفه الظلامْ..؟
"وَلِي كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ من يبيعني
بها كَبِدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُروحِ؟!"
"أبَاهَا عَلَيَّ النَّاسُ لا يشترونها
ومَنْ يشتري ذا عِلَّةٍ بِصَحِيحِ؟"

يا سيدي البوسفورْ!
تلك الرياح مزّقتني بين شاطئَيك موجةً
أو حيرةً من رجفة الخريفْ...
فأخْبِرَنّي عن سفينةٍ
قد قيلَ لي: مرت هنا تحمل غابةً صنوبريةً
فلم تزل تمخر حُزْنَ البحرْ
حتى رست على مساء "التلّة العليا"
ثم ارتقت معراجَ ريحٍ عابرٍ..
واندثرتْ!
وقيل لي: بل غادرت إلى غروب "الدَّرْدَنيلْ!"
حيث الشموسُ لا تنام أبدًا..!
وإنني أَذْكُرُ من غرامها حبَّ الشعاعْ
فلم تزل تقطف من سنائه وَرْدَ الصباحْ
حتى أضعتُ طيفَها وَاحَسرتي..!

obeikandl.com

بغفوتي!
يا سيدي البوسفور!

وذات ليلة رأيتها تصلّي فَجْرَهَا..
فقمتُ كالحصان راكضًا
حَتى أتيتُ حيَّ "فاتحٍ"
وقلت للإمام: سيّدي أنا المريدُ دُلَّني!
فقال لي: أفي الصلاة؟
يا سيدي! قلبي الذي قد كان وحدةً
مزَّقه حُبُّ البحار خفقةً فخَفقةً!
يا سيدي أنا المريضُ دلّني!
فقال لي: وَيْحك يا وجه الردى!
أأنت من يجيء من "فاسٍ" مهاجرا؟
يحمل في عينيه مَهْرَها؟
قلت: نعم؛ فأينَها؟
فقال لي: قدَرُكَ الأسفارُ تَتْرَى دونها يا ولدي..!
مآذنُ "إسطنبولَ" أيقظتْ دموعهَا...
فرحلتْ..!
وما لنا من أثَرٍ سوى الذي ترى!
وقال لي: ما من دواءٍ غيرُ دائها!

obeikandl.com

فاركبْ خيولَ الحزن إنها هناكْ
تعيش في "بَارْلاَ" وتشدو وَجْدَها
على غصون القَطرَانْ
فلم تزل بخلوة الأشجارْ
تَشْهَدُ ذَوْبَ الشمسِ في بحيرة الأسرارْ!

وقيل لي لربما تكون غادرتْ سرًّا إلى "إزميرْ"
لتقرأ الحروفَ خُفْيَةً
على سنَا الأقمارْ
في أسطر الكُرومْ
والتين والزيتون
يا سيدي الإمام دُلَّنِي!
فإنني أنا الحيرانُ بين أنجم السَّفَرْ!

وقيل لي -يا سيدي البوسفور- ربما تجيء من طريق "وَانْ"
تحمل من عبيرها ذكرى انجذاب الرُّوحْ
وتنثر الأزهار في الطريق للرياحْ
وقيل: بَلْ لِغَابَةِ "إسْبَارطا" جمالٌ يجذب الأطيارَ والأمطارْ..
فاركبْ لهاثَ القلب نحوها
فربما لَيْلاَكَ في سفوحها تحوطها الغزلانْ
مخطوفةَ الأبصارِ من جمالها..
وقيل لي: بل هي في "بُورْصَه"

obeikandl.com

تلتقط النجومَ والحجارةَ الكريمةْ
تَخُطُّ فوقَ قِمَّةِ الثلوجِ "نُون،
وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ...

يا سيدي البوسفور!
ها غيمُك الجليلُ يزدهي بِدُرِّه الجميل
فاقْرَأْ سلاَمَ البرق للشطآنِ في مدائن الأحزانْ،
وقل لهم: سنلتقي بموعد الأذانْ!
إذا تحرك الحجيجُ في مسيرة النخيلْ
يُكَبِّرُ الإمامُ أولاً،
.....
ويَشْرَعُ الصهيلْ...!

obeikandl.com

بدا حاجب الأفق [٦]

فتح الله كولن

تعريب: فريد الأنصاري

أَوشك السفرُ على الانتهاء،

وبدا حاجب الأُفق،

ذاك الربيع الذي كان مخضرًّا بكل أشكاله،

أصبح اليومَ مصفرًّا..

الروح كالورقة، مهيَّأة للرحيل،

والقرار مَوكول إلى "القلم"،

لِيخُطّ النقطة الأخيرة..

فجأة.. كلُّ شيء بشتَّى ألوانه،

ارتدى بُعدًا أخرويًّا؛

ثم بدت نسائم العالَم الآخَر،

---

[٦] مجلة حراء، العدد:١٨ (يناير-مارس ٢٠١٠م)؛ لقد قام بتعريب هذه القصيدة الموزونة بأسلوب الشعر المرسل، الفقيد المرحوم فريد الأنصاري بعد أن قُدِّمت له مترجمةً ترجمة حرفية، وكان ذلك من آخر أعماله رحمه الله.

obeikandl.com

وانكشفت غايات الأحلام الكاذبة واحدةً واحدة..
على كاهلي الآن جبَلٌ عظيم يوشك أن يتزلزل،
وفي أملي يتلألأ الربيـع...

وها كل عضوٍ مني يرتجف مثل أوراق الشجر،
كأنني الآن ميزان الألم:
في إحدى كفّتيه الخوف، وفي الأخرى مطلق الرجاء..
وموج الأكدار يضرب شاطئ السرور والأفراح،
أحيانًا في غاية السرور أنا، وأحيانًا أجهش بالبكاء،
ألطاف تنزل وابتلاءات تهطل...
وكالغيث يشوبه الثلج ينهلُّ عليَّ،
والمشاهد تترى، والستار ينفرج وينسدل...

كأن الميعاد قد حان،
وفي الأفق شفَق جديد،
ظِلُّ العالَم الآخر يلامس وِسادتي كل حين،
في ربوع قلبي شاهدتُ سابقًا ذاك الطلوع،
فصلا بعد فصل،
فوجدتُه أشدّ طرَبا من أشعّة ربيعيَ الأول...

obeikandl.com

ولكن، إذا بقيت فرصة لخدمة ديني بعد اليوم،
فصبرا على الحياة هُنَيهات،
وحُقّ لها أن تعاش فترة أخرى،
أما الآن فهمّي الوحيد هو أن يُعرَف المولى العظيم،
ليت شعري، ربما بعد بضع خطوات،
يُعرَف أكثرَ مما كنت أحلم وأتوق...

obeikandl.com

ربي أنا [٧]

فتح الله كولن

تعريب: فريد الأنصاري

ربِّي أنا، ربِّي أنا،
ما لي مولَى سواك،
إني عشتُ وفاءَك لي في ظل ولايتكَ إلهي،
ألاَ ما أعظم فيض وفائك يا الله!..

كل الخلق عبيدٌ جاثون ببابك،
وأنت مرادهم المطلوب،
فارفع ستار البَين
حتى يرى الكلُّ جمالك!

معروف أنت، ولكن لا تُدرَك ذاتُك،

---

[٧] لقد قام بتعريب هذه القصيدة الموزونة بأسلوب الشعر المرسل، الفقيد المرحوم فريد الأنصاري بعد أن قُدِّمت له مترجمة ترجمة حرفية، وكان ذلك من آخر أعماله رحمه الله.

obeikandl.com

كرسيُّك قد وَسِعَ كلَّ الأشياء..
مَن شاهدك ربي قد شاهد،
وأما من عَمِيَ فإنك تُخفي عنه جمالك!

ما أوهم من يزعم جهلا
أنْ قد عرف الله كمالَ العرفان!
وأما مَن جهلوك جحودًا
فهم حصب النيران..
معرفتك ربي في قلبي منجم،
سُبُّوحٌ أنت للعاشقين إلهي..

اسمك الجليل نور للأرواح،
وذكرك طمأنينة المجالس..
فحضرتك منتهى سير العارفين،
وأنت دواء المهمومين إلهي..

جُرمي كثير لا أحصيه،
لا حظّ لي من الطاعات، ولا زادُ عبادة،
ولربَّما اقْتَرَب موعد رحيلي،
فلولا أن تمدَّ يد العون نحوي،
.....
ومن يغفر لي غيرك ربِّي..؟!

obeikandl.com

البحث عن صاحب العلامات [٨]

هناك علامات قويّةٌ جدًّا؛ إذا قرأَها إنسان له أدنى معرفة بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية، تَبيَّن له أن هذه العلامات تُخبره برسالةٍ معيَّنة.. هذه الرسالة، كنتُ أبحث عنها منذ ما يقربُ من عشرين سنة في بلدي..

هذه الظلمات التي تعمُّ العالَم الإسلامي اليوم، لا بدّ وأن يكون هنالك نورٌ يَخرقها ويُجلّيها ويبيّنها، لا بدّ.. هكذا تقول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.. لكن الحيرة التي كانت تَنْتابني هي أنّه كلما عثرتُ على بصيص نور في المغرب أو في بِلاد عربية أخرى من البلاد التي كنتُ أزورها، ومن التجارب الإسلامية التي أعرفها في مناطق أخرى من العالَم العربي، كلما وجدتُ بصيص نور وتتبَّعْتُه لا تمضي مدة قليلة حتى ينطفئ هذا النور، وتُصبح مشكلة، أي تعود الأمورُ إلى ظلماتها كما كانت من قبل.. فأتعجَّب أين هو النور الذي وعَد به اللهُ جلّ وعَلا، ووعَد به الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي إذا أخذ بيد الإنسان في آخر الزمان، نجا من فِتَن آخر الزمان..

كلَّ مرّة حينما أصل إلى نتيجة فاشلة أرجع إلى دراسة تلك العلامات

---

[٨] محاضرة ألقاها الأستاذ المرحوم فريد الأنصاري في إسطنبول، أغسطس ٢٠٠٦م، وقد تم تفريغها من التسجيلات حيث حررت وأعدت للنشر. (المحرر)

obeikandl.com

التي هي في ذلك النور، فأكتشف أن ذلك النور ليس بنورٍ حقيقي، وإنما هو يُشبه النور، أي أنه منعكس عن النور الحقّ الذي أبحثُ عنه ولكن ليس هو إيّاه.. فأجد أنني كنتُ قد ضللتُ الطريق مرّة أخرى، وأن هذا من الحقّ الذي يشبه الحق، وليس بحقّ.. إذن أين هو الحق؟..

إلى أن منّ اللهُ عليّ بلقاء الأستاذ إحسان قاسم الصالحي في الدار البيضاء بالمغرب، والقصّة طويلة جدًّا، هاهنا سأختصرها في جملة، وهي أنه حدَث اتّفاق بيني وبينه على أنّني سأدرس كلّيات رسائل النور.. وكان الاتّفاق على أن أدرسها دراسة أكاديمية، من أجل أن أُبيّن المصطلحات، واللغة الخاصة التي تكلّم بها بديع الزمان النورسي، ولم تكن لي نيّة في البداية أنّني سأَخلُص إلى شيء يعالج ذلك المرض الذي في قلبي أو يَرْوي ذلك العطش الذي في روحي.. لم تَكن لي هذه النية في البداية.. أنا في البداية أدرس دراسة أكاديمية بعد اتّفاقٍ حصل بيني وبين إحسان قاسم الصالحي.. لكن الذي حدَث أنّني بمجرّد العمل وبدأتُ أتطوّر في قراءة رسائل النور، وجدتُ أنّ الذي أبحثُ عنه هو هنا في هذه الرسائل، وأن الذي وصلتُ إليه في النتيجة بدلَ أن أكون أنا أدْرُس رسائلَ النور، صارتْ رسائلُ النور هي تَدرسني..

فقد شعرتُ بعد ذلك مباشرةً أنّ بديع الزمان صار يَسكنُني..

فبقي بعد ذلك شيء، وأنه لا بد أن أعْثُر على العلامات التي تُبيّن أن هذا النور هو الحق، فوجَب إذن الرحيل إلى إسطنبول، مَنْبع النور.. ما دام أن هذه الرسائل جاءتْ إلى المغرب من إسطنبول، تَعيَّن عليّ وفهمتُ الإشارة أنه لأصل إلى الحقيقة يجب أن أذهب إلى إسطنبول لأبْحثَ عن العلامات في الواقع وليس فقط في رسائل النور..

حملتُ إذن في يدي العلامات من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، أريد أن أطبّقها على ذلك الواقع.. لقد كان وضعي أشبه ما يكون بوضع سيّدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وبعضِ الصحابة الذين أخذوا من رسول الله عليه الصلاة والسلام العلامات التي كانت تتعلّق بأُويس القرني الذي حدّث عنه النبي ﷺ فقال: «خير التابعين أوَيس».. فأويس هذا لم يكن قدْ رأى النبيَّ ﷺ ولا النبيُّ ﷺ رآه.. ولكن الله جلّ وعلا نبّأ رسولَ الله ﷺ أنه سيكون في التابعين شخصٌ اسمُه "أُوَيس" وله علامات، فأخبر النبيُّ الصحابةَ بعلامات أويس، وقال إنه كان بَرًّا بوالدته، وإنّه كان مريضًا بالبرَص في جسمه كلّه، فدعى الله جلّ وعَلا فبَرِئَ من البرص، وشفاه الله، إلا موضع دينار، أو موضع درهم من جسمه، بقي فيه ذلك البرَص ليُذَكِّره -أي ليُذكِّر أويسًا كلّما رآه- بنعْمة الله عزّ وجل عليه.. فقال لهم النبي ﷺ: «إذا وجدْتُم هذا الفتى فاسألوه أن يدعو الله لكم، فإنّه مُجاب الدعوة»..

توفي رسول الله ﷺ سيّدنا وحبيبنا، بأبي وأمّي هو، وجاء عصرُ الخلفاء الراشدين، ولم يزل عمر بن الخطّاب أمير المؤمنين ﷺ يَبحث عن أويس. كلّما كان موسم الحج يأتي وفدُ اليمن إلى الحج، فيسأل وفدَ اليمن، "هلْ فيكم شخصٌ اسمه أُويس؟"، يقولون "لا، ليس فينا هذا الشخص".. فمرّ زمان أبي بكر الصدّيق ﷺ كله لم يجدْ عمر بن الخطّاب ﷺ أويسًا.. حتّى كانت خلافة سيّدنا عمر بن الخطّاب ﷺ، في زمانه، أي بعد وفاة أبي بكر الصدّيق ﷺ، وفي عام من السنوات التي كان فيها هو الخليفة، خرَج إلى موسم الحج في عرفات، حيث يتجمّع الناس جميعًا، فسأل عن وفد اليمن، فأخبروه بموقع وفْد اليمن، فذهَب إليهم، وقال لهم "أنتم

أهل اليمن؟"، قالوا "نعم".. قال "هل فيكم شخصٌ اسمه أُويس؟"، قالوا "نعم، هو فتى، تَركْناه مع رحالنا".. أي كان فتًى مُهْمَلاً لا يَأبَه به أحَد، "هو مع الرحال" أي مع الجمال يحرص المتاع.. ليس من أشراف القوم وليس من الشخصيات العظيمة.. فقال "اؤتوني به".. فجاؤوا بهذا الفتى.. فقال له "أنت اسْمُكَ أُويس؟"، قال "نعم".. قال "هل لك أمٌّ أنتَ بَرٌّ بها".. قال "نعم".. قال "هل كان بك برَص وشافاك الله منه إلا موضع دينار من جسمك"، قال "نعم".. قال له "لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول فيك كذا وكذا وكذا.. فأنتَ هو صاحب العلامات، إنّي أَطْلب منك أن تدعو الله لي.. فجعل يدعو ويسأل الله جلّ وعلا لعمر بن الخطاب وللصحابة أجمعين.. فلمّا اكتشف أهل اليمن والناس أجمعون سرَّ الذي كان عند أويس القرني، الْتفُّوا حوله، فحينما التفّوا حوله، وشعَر بنفسه أنه صار مَطْلوبًا، هرَب.. وبعد ذلك كتبُ التاريخ تذكر أن خبره انقطع، ولم يَعلم أحدٌ أين ذهب، ولا أين تُوفّي.. انقطع، ذهب على وجهه في الصحراء هاربًا، خاف على نفسه على أن يفتنه الناس بهذا المعنى...

الشاهد عندي من القصة، أنّ صاحب السرّ -أيّ سر- تكون له علامات واضحة لا يجوز أن يُخطئ الرسول ﷺ هذه العلامات، وإذا كانت لدينا علامات فيجب أن نجدها مطبَّقةً على الشخص الْمَوعُود بالتجديد في الدين..

إن العلامات التي جئتُ بها وأبحث عمّن تنطبق عليه، ولم أجدها في بلدي ولا في أي بلد آخر من كثير من بلدان العرب التي زرتُها، وفيها دُعاة ومصلِحون وحركات إسلامية قوية جدًّا، لكن هذه العلامات دائمًا كانت ناقصة، فأجد بعضها ولا أجد البعض الآخر.. ولذلك قلتُ آنفًا "هذا الذي

يُشبهُ الحق"، لأن بعض العلامات موجودة وبعض العلامات الأخرى غير موجودة، إذن هذا هو ليس المطلوب.. إنما العلامات التي هي لـ"مجدِّد العصر وللفاتح الذي يفتح ظلمات هذا العصر" لا تكون علامات مادّية، بل هي علامات معنوية.. لأن الله جل وعلا ذكرها في القرآن الكريم، وذكرها النبي عليه الصلاة والسلام أيضًا وهي موجودة في السيرة النبوية..

فجانب منها يتعلّق بـ"منهج العمل" وجانب منها يتعلّق بـ"طبيعة الإنسان الذي يقوم بهذا العمل"..

العلامات المتعلّقة بـ"منهج العمَل"

النبي ﷺ وصف العلماءَ المجدّدين بأنّهم ورثة النبوّة، في حديث صحيح يقول فيه ﷺ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء».. العلماء الذين يرثون النبوّةَ ويرِثون السرّ الذي كان عند رسول الله ﷺ ليسوا هم أي عالم. إذ قد يكون العالم بالشريعة فاجرًا أو فاسقًا، إذن فلا بد أن يكون هذا العالم قد ورِث السرّ الحقيقي.. والعلمُ الموروث هنا ليس علم الظاهر فقط، بل هو علم الظاهر وعلم الباطن.. وهذا الذي لا يَجتمع لدى أغلب الناس؛ إذا كان عنده علم الظاهر فقليلاً ما يكون عنده علم الباطن.. وإذا اهتمّ بعلْم الباطن، -هكذا نجد الناس عندنا من العلماء، يهتمّ بعلم الباطن لكن- يكون فارغًا من علم الظاهر.. فلا بد إذن أن يَجمع السرّ من وَجهين..

فحديث «العلماء ورثة الأنبياء» لبيانه ولتبيُّن العلامات الحقيقية منه نَرجع إلى القرآن الكريم.. القرآنُ وضّح هذه العلامات بقوّة وفي أكثر من موطن من السور القرآنية، من سورة البقر إلى غيرها.. في قول الله جل وعلا ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(الْجُمُعَة:٢).. أربع وظائف أساسية للنبوّة.. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.. وهذا ذُكر في سورة البقرة -كما ذكرتُ- في دُعاء إبراهيم عليه السلام لهذه الأمّة ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البَقَرَة:١٢٩)، هكذا في سورة البقرة..

فإذن وظائف النبوة أربع بنصّ القرآن الكريم، وفي سياقات كثيرة..

١-النبي ﷺ رجلٌ مُوحى إليه، خصائصه وظائفه أنه يتْلوا الآيات.. وهذه علامات عجيبة جدًّا سأرجع إليها بعد قليل.

٢-"يزكّي" أي يربّي تربيةً روحية، وله تأثير روحي عظيم جدًّا على كلّ مَن يقابله.. وكذلك طبعًا كان رسول الله ﷺ.

٣-ثم هو "معلِّم".. لكن كيف يعلّم؟

٤-يعلِّم الحقائق العلمية ممزوجةً بالحقائق الروحية، أي ما يُسمّى بـ"الحكمة"، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾..

فهذه إذن أمور أربعة..

١-﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾

حينما كان النبي ﷺ يتلو عليهم القرآن ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، فقد كان يتْلوه بروحه، لم يكن يتْلوه بفَمِه فقط، بل إذا قرأ القرآن تشقَّقت الأشياءُ حوله، كان المنبر -كما هو معروف- حينما كان يخطب عليه، المنبر القديم الذي كان عبارةً عن جذع النخلة، حينما ودّعه -كما في الصحيح البخاري وغيره- واعتلى المنبر الخشب الجديد، جعل هذا المنبر يَنُوح كما ينوح الطفل الصغير، وصار له رُغاء كرُغاء الجمل الصغير، يبكي

على فِراق رسول الله ﷺ، حتّى أخذه النبي ﷺ وضمّه إليه، وجعل -كما في الحديث - يُهَدْهدُه كأنما هو طفل صغير يُسْكِتُه.. لماذا؟ يقول العلماءُ وشُرَّاح هذا الحديث: "كان هذا المنبر يُصْغي إلى الذكر، يصغي إلى القرآن حينما يَتْلُوه النبي ﷺ"..

فتلاوة الرسول للقرآن الكريم كانت بعزيمةٍ روحيةٍ عالية جدًّا، إذا تلاه على الناس كان له تأثير كتأثير المادّة وكتأثير النور على الظلام.. كذلك أخذه الصحابة الكرام ﷺ عنه؛ إن الصحابي الذي عالج لديغًا عضَّتْه أفعى، لسعته أفعى.. معروفة هذه القصة، صحابي عالج لديغًا لسعتْه أفعى برجْله، فعالجه بسورة الفاتحة.. طيب، هذه سورة الفاتحة موجودة نقرأها على أنفسنا وعلى أبنائنا، ليس يكون لها تأثير.. السرُّ إذن هو أن هذا الشخص الذي كان يقرأ سورة الفاتحة كان يقرأها بعزيمةٍ روحيةٍ تختلف عن العزيمة الروحية التي عندنا..

إن القرآن الكريم هو أشبه ما يكون بعود الثقاب، عود الثقاب قابلٌ للاشتعال.. فالصحابة كانوا يشعلون عود الثقاب، فيكون نور، ويكون تأثير.. لكن نحن نحمل عود الثقاب، نقول "نعم هذا هو القرآن، هو عود الثقاب"، لكن لا نُشْعله، والزيت الذي يُشْعله هو زيت القلوب.. فإذا خالطت القلوب والأحاسيس القرآن الكريم، وتلا الإنسانُ القرآن الكريم بالروح التي تلا بها رسول الله ﷺ والصحابةُ بعده، والتابعون، وعلماء الأمة المجدِّدون عبر التاريخ، إذا حدث هذا فسيكون للقرآن عند الذي يتْلوه تأثير خارق جدًّا..

أنا كنتُ أبحثُ إذن عن هذا الذي "يتْلو القرآن" فيكون لتلاوته تأثير على الواقع، على المادّة، على المحيط، على الإنسان.. هذا النوع فعلاً

هو الذي يُعْتَبَر "صاحب العلامة"..

حينما بدأتُ أتجوّل في إسطنبول، صادف أن دخلْتُ دُكَّانًا يبيع أشرطة، ويبيع سِيدِيهات.. فبدأتُ أشتري لأطفالي أناشيد، مثل هذه الأسماء التي عندكم، جميلة جدًّا.. فوقعتْ يدي على سي دي من بين هذه الأشياء، قراءات في رسائل النور لبعض الشباب.. ثم وقعت يدي على سِي دِي للأستاذ فتح الله كولن يقرأ الجوشن.. أخذتُ معي هذه الأشياء إلى بيتي في المغرب، وبدأتُ أُنْصتُ لها جميعًا.. الأناشيد وجدتُها جميلة جدًّا، أعطيتُها لأبنائي، تعلّقوا بها كثيرًا.. وطبعًا رسائل النور التي تُقْرأ، أبنائي لا يفهمون التركية، وهذه ليست بمُوسيقا ولا أناشيد، ما تعلّقوا بها.. أنا لا أفهم اللغة التركية، ولكن أستريح روحيًّا لهذه القراءة من رسائل النور.. لكن الذي حصل هو أنه بمجرّد سماعي لتلاوة الأستاذ فتح الله كولن لدعاء الجوشن في هذا السي دي، شعرتُ فعلاً بأنّ هذا الرجل "يتْلوا بقلبه، بروحه".. ووجدتُ أن هذه التلاوة تُغيّر منّي كلَّ شيء.. كانت تلاوتُه للجوشن وأذكاره تَخترقني بقوّة، شعرتُ إذن بأن هذه التلاوة تتنزّل عليّ من فَوق كما ينزل الشيء الثقيل على الجسم الضعيف الذي لا يَحْتملها ولا يَقْوى عليها، كأنّما جسْمي يتصدَّع، وكأنّما روحي تتمزّق بسبب قوّة هذه الكلمات التي يَنطِق بها هذا الرجلُ.. والسرّ عندي إنما كان في الروح التي كان يقرأ بها الأستاذ فتح الله كولن هذا الجوشن.. فأيقنتُ آنئذ بأنّ هذه هي العلامة الأولى.. هذا رجلٌ يَتْلو حقَّ التلاوة كما في كتاب الله ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾(البَقَرَة:١٢١)..

رجعتُ إلى إسطنبول مرة أخرى.. ومرّة أخرى بدأتُ أكتشف المعاني العُمْرانية الكُبْرى التي أنْجزتْها دعوة الأستاذ فتح الله كولن.. بدأتُ أجد

بأنّها دعوة استطاعتْ أن تمتدّ إلى كل القطاعات على المستوى الاقتصادي والثقافي والتعليمي، كلُّ شيء، كل شيء، هياكل مجتمع كاملة استطاعتْ هذه الدعوة أن تنْبُتَ فيها وأن تنبُت بقوّة.. بدأتُ أسأل: "هذا الرجل ماذا كان يُقدِّم للشعب التركي؟ ماذا كان يُعطي؟ ماذا عنده؟".. فكُلّ الإجابات، سواءٌ من الشباب أو الشيوخ والذين تتلْمذوا مباشرةً على الأستاذ فتح الله كولن أو حتّى الذين لم يَرَوْه ولم يتتلْمذوا عليه من الأتراك، الكُلّ كان يُجْمِع على أن الأستاذ فتح الله كولن كان يقوم بعملٍ واحد: وهو أنّه كان "يتكلّم".. هذا الذي يصنع الأستاذ فتح الله كولن.. ما كان يأخذُ الناس إلى الدين ولا يُلْزِمهم بالقوّة، ولا يُرْغِمهم، وما كان يُخْرج ما في دِماغهم من أفكار بيَده، بل كان فقط يتكلّم.. رجلٌ يَخطب في المساجد دروسًا ومواعظ.. يُعلّم الناس، فإذا بالناس يتحوّلون بصورة عجيبة غريبةٍ جدًّا.. فإذن كان رجلاً ﴿يَتْلُو﴾.. هذه هي التلاوة.. فإذن كان يُفَسِّر الآيات، يشْرح الأحاديث.. وعلماء كثيرون في البلاد العربية يَشرحون ويُفسّرون، لكن لا تأثير لهذا الشيء بهذا المستوى العالي الرفيع.. فإذن هذه علامة تحقّقتْ لديّ بالملْموس، أي بالأدلّة المادّية..

أنا أعتبر بأنّ هذه البناية التي نحن فيها الآن، والبنايات التي تُشْبهها والمدارس بصفة عامّة، هذه من أثر "التلاوة".. لأن التلاوة الحقّة ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ يكون لها أثرٌ مادّي.. فرْق بين تلاوةٍ تمضي في الهواء؛ أنا أتكلّم وكلامي عبارة عن أصوات، فالأصوات تمضي في الهواء، هكذا، تمضي في الهواء.. لكن هنالك كلمات تتنزّل على الأرض مثل الغيث مثل المطَر، فتنبُت الأشجار، والخضرة والأزهار.. الكلماتُ الحقّة، إذا تُليتْ بحقّ، تُنْبِتُ العمران، تُنْبِتُ الإنسان..

وجدتُ بحقٍّ أن تلاوة الأستاذ فتح الله كولن أنبتتْ أُمّةً، وأنبتتْ مُجتمعًا..

أنا أتحدّى، وأتحدّى كُلَّ مَن يَزْعُم أنه يقوم بالعمل الديني والإصلاحي أن يأتيَني بمثْل هذه "التلاوة" التي أنبتتْ شيئًا في الواقع..

هذه علاماتٌ فارقةٌ بين سر الرحمن وسحر الشيطان..

٢-﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾

تتبّعتُ بعد ذلك العلاماتِ الأخرى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.. وجدتُ فتح الله كولن فعلاً يقوم بالتزكية على منهج رسول الله عليه الصلاة والسلام.. يأخذ الإنسانَ فيُفْرغه من أنانيّته، ينتهي تمامًا؛ يَفْنى في الحقّ، يفنى في الدعوة.. الرسول ﷺ أخَذ الناس من الجاهلية، كلُّهم يُعجِبُه نفسه، جُهّال، جاهليةٌ مُظْلمة.. فإذا بالشخصٍ من بعدِ ما يكون مثل الوحْش في الجاهلية يَدفن بنتَه في الأرض، إذا به يُصبح عبقريًّا في الإسلام، يُصبح عِملاقًا بسبب ما يَفْنى في الجماعة المسلمة وبسبب ما يفْنى في حبّ الله وفي حبّ رسول الله ﷺ، فإذا به يَسْتجيب للأمر النبويّ أنّى كان، وكيفما كان.. الطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ من أشخاص، كانوا جَهابِذة في الجاهلية، كانوا مثل الجبال، فصاروا في الحقّ بذلك المستوى، ولكن على طاعةٍ عظيمة جدًّا..

وجدتُ التربية التي يُقَدّمها الأستاذ فتح الله كولن هي من هذا الطراز، وهي يتيمةٌ في هذا العصر، لا مثيل لها.. وجدتُ الناس ههنا يقِفون أنفسَهم على الخدمة، مستعدّون للذهاب إلى أقصى الأرض، إلى أصعب

مواقع العالم إذا تَلَقّوا الأمرَ من هذا الأستاذ.. هذه تزكية نادرة، بل لا وُجودَ لمثلها في هذا الزمن..

٣-﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾

أما علامة التعليم كما يقول العرَب "أَوضَح من الشمس في رابعة النهار".. الرجل أولاً معلِّم.. هكذا طبيعته، وهكذا تكْوينه.. والنبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح «إنّما بُعِثْتُ معلِّمًا».. نعم، «إنّما بُعِثْتُ معلِّمًا».. وفتح الله كولن رجلٌ معلِّمٌ منذُ بدْء حياته.. واشتغل في الدعوة بالتعليم.. المحْور الرئيس كما هو ملاحَظ وواضح جدًّا لأيّ إنسان يطّلع على حركة الأستاذ، المحور الرئيسي في حركته وفي دعْوته إنما هو "التعليم".. كلُّ شيء عنده يخدم التعليم.. طاقة مادّية هائلة.. شركات كُبْرى تَخدُم التعليم.. فاتّخذَ التعليمَ له مِحورًا من الناحية الحركية..

هذا الأستاذ إذن كان يُترجم حديث الرسول ﷺ «إنّما بُعِثْتُ معلِّمًا»..

٤-﴿وَالْحِكْمَةَ﴾

إضافةً إلى التعليم، كان يعلّم "الحكمة".. الحكمة التي تقتضي أن تعيش في مجتمعٍ صعبٍ جدًّا، الأصل فيه أنّه لا يقبَل الدين.. في مُجْتمَعٍ فيه تضييقٌ كثيرٌ، وقد عاش -ولا يزال حفظه الله وبارك في عمُره- عاش مَنْفيًّا في بلده، ومَنْفيًّا خارج بلده.. واستطاع أن يَسْلُك بهذه الدعوة جميعًا إلى بَرّ الأمان، وأن تنْجح.. لا يكون هذا إلا بـ"الحكمة".. فلذلك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

هذه الأماراتُ كانت قويةً جدًّا، واضحةً.. وليَ فيها تفصيل، لولا أن أُطيل عليكم لبيَّنْتُ ولفصَّلتُ، وإنّما القصد "الاختصار"..

وأَرجع بعد ذلك مباشرة إلى العلامات التي تتعلّق بشخصه حفِظه الله..

العلامات المتعلّقة بشخصية "وارث السرّ"

أما بالنسبة لشخصه -حفظه الله- فالعلامات كثيرة جدًّا.. ولكن أبرزها أمران:

علامة الوِلاية، وعلامة الزهد والتقلُّل من الدنيا..

١-علامة الولاية

أما علامة الولاية التي في الحديث النبوي الشريف: «مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنْتُه بالحرب.. وما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضتُ عليه.. ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبَّه.. فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطش بها، ورجلَه التي يَمشي بها.. ولئنْ سألَني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه».. يُصبح هذا الإنسان بهذا المنهج -الذي هو عبارة عن منهج روحاني عميق جدًّا- وليًّا لله جل وعلا.. بمعنى أنه لا يَضع يده على شيء إلا نَجَح فيه: «ولئن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه»..

هو مَحْميّ، مَحميّ بقدْرةٍ إلهية خارقة.. الأعداءُ للأستاذ فتح الله كولن كثيرون، ولا شكّ يحاولون أن يُؤْذُوه بأيّ وسيلة؛ بوسائل قانونية، وبوسائل سرّية، وبوسائل متعدّدة.. ولكن الشيء العجيب حقيقةً هو أنه

ليس له مَن يحميه، من الناحية المادّية.. ولكن الله أنْزل عليه ثوْبَ الستْر وثوبَ الحفْظ من عنده، بحيثُ لا يصل إليه أحد، رغم أنّه قريب من كلّ الناس.. هذه علامة عجيبة جدًّا وغريبة..

٢-علامة الزهد والتقلُّل من الدنيا

أما علامة الزهد والتقلُّل من الدنيا، فطبْعًا الكلُّ يعرف هذا، وواضحٌ جدًّا، وهي علامة نبويّة.. النبي ﷺ كما حدّثتْ سيدتُنا عائشة -رضي الله عنها أم المؤمنين- في الحديث، أنّه كان تمرّ عليه ﷺ على بيتِ آل رسول الله الشهرُ والشهران لا تشتعل النار في تنّورهم، أي في المطبخ.. لا يَطْبخون شيئًا الشهر والشهرين.. ويعيشون على الأسودين: الماء والدقَن، أي الماء ورَديء التمر.. هذا الزهد العالي الذي لا يُطيقه كلُّ الناس.. الذي كان في شخص رسول الله ﷺ إذا تمثّل في شخصٍ بعده، معناها أنّه وَرِث سرًّا من أسرار النبوّة من رسول الله ﷺ.. وهذا واضح في شخص الأستاذ فتح الله كولن..

أنا أعرف كثيرًا من الدُّعاة على مستوى العالَم العربي، صاروا أغنياء بسبب دخولهم إلى الحركة الإسلامية.. بسبب قيادتهم لجماعاتٍ إسلامية صاروا أغنياء.. فتح الله كولن يَملك كلَّ شيء، ولا يملك أيّ شيء.. لو نظرت إلى المؤسسات إلى الشركات، هو غني جدًّا، لكن ماذا يَسْتفيد هو في شخصه وهو يعيش -عندما كان هنا في أسطنبول، كان- في مكان أشبه ما يكون بسجْنٍ انْفرادي.. ماذا يستفيد في شخصه هو: لا شيء.. وهو الآن يعيش في مكانٍ أشبه ما يكون بالْمَنْفى..

فلذلك إذن هو شخصه، طبعُه متقلِّل من الدنيا، زاهدٌ، رغم أنه لو أرادها لأغْرقتْه بالأموال وبالمتاع.. شخص هكذا، لا يمكن معرفته إلا بعد تجربته.. بالكلام لا يمكن معرفة هذه الأشياء.. لأن الإنسان قد يكون فقيرًا أو ليس لديه المال، يقول "إذا أعطاني الله المالَ الكثير تصدَّقتُ وفعلتُ وفعلتُ".. لا.. الإنسان حينما يكون لديه المال، هنالك سيُجَرَّب..

فلذلك الداعية الحقّ هو الذي يفيض عليه المال وتفيض عليه الأرزاق، ويستطيع أن يضبط نفسَه، ويستطيع أن يعيش داخل هذه الأموال وداخل هذه المؤسسات دون أن يستفيد لشخصه شيئًا، بل الكلُّ يكون لله..

الشهادة لله، أن هذا الشخص فعلاً جعل كلَّ شيء لله.. بل جعل نفسَه هو في خدمة هذا الدين، وفي خدمة هذه الدعوة..

ههنا بالنسبة لي وصلتْ العلامات إلى درجة القطْع.. ما بقي لي ولا شيء من الظنّ في أنّ هذا الرجل هو "مُجدِّد هذا العصر" وفي هذه البُقعة التاريخية العميقة من العالَم الإسلامي التي هي تُركيا بما تُطلّ عليه من موقع جغرافي استراتيجي في العالَم، تربط بين أوروبّا وبين أسيا وبين إفريقيا..

أيقنتُ من خلال هذه العلامات وغيرها -وهي كثيرة جدًّا ذكرت بعضًا منها فقط- أيقنْتُ بأنّه فعلاً ينطبق عليه حديث «العلماء ورثة الأنبياء» وأنه وارثٌ لسرّ التجديد الديني.. ثم هو وارثُ السرّ الذي كان عند الأستاذ بديع الزمان النورسي حقيقةً وفعلاً..

الأتراك ومعرفة فتح الله كولن

وبالنسبة لوضْعي النفْسي والروحي أحسستُ تمامًا كما يُحسّ ذلك

الذي كان يبحثُ عن والده من بعد ما فقَده.. حوالي عشرين سنة من البحث -كما ذكرتُ في بداية الكلام- عن والدٍ روحيّ، وجدتُ أخيرًا أنّ هذا هو الوالدُ الروحي الذي كنتُ أبحثُ عنه.. فحمدتُ الله على ذلك، وذكرتُ كم هي النعمة عظيمة من الله جلّ وعلا على هذا الشعب التركي الذي سَخَّر اللهُ له والدًا روحيًّا فعلاً "يُخْرجه من الظلمات إلى النور"..

فلْيَنْظُرْ الإنسان -خاصةً هؤلاء الأتراك فلْيَنْظروا- أيّ نعمة أنعم الله عليهم بها، أنْ جعل هذا الرجل منهم يتكلّم بلغتهم، يعيش بين أظهُرهم، يَروْا مُنْجزاتِه بأعينهم..

هذه الجبال التي في تركيا عمومًا بدءًا بإسطنبول وانتهاءً بسائر الأماكن.. هذه الجبال في تركيا العظيمة، ستُشْرقُ يومًا بإذن الله عزّ وجل بنور عظيم يُغطّي كلَّ العالَم.. لأنّ هذه الجبال تَحملُ أسرارًا قديمةً جدًّا، قلبُها ينبُض بها.. والأولياءُ حدّثوها واستمعوا إليها أيضًا.. وكلامُ بديع الزمان النورسي في رسائله كله حديث مع الأشجار، ومع الأطيار، ومع هذه الجبال، من شرق تركيا إلى إسطنبول.. هذه الجبال الآن يُخاطبها الأستاذ فتح الله كولن بكلامه، بفعله، بأحواله، وتُخاطِبُه.. كأنّي أراها الآن تتفجّر بنورٍ عظيم في مستقبلٍ قريبٍ بإذن الله عزّ وجل، يسَعُ الكُرة الأرضية كلَّها..

ولذلك إنّي أسأل كما تساءَلتُ من قبلُ: "هل فعلاً الأتراك يعرفون ما معنى "فتح الله كولن"؟

نسأل الله عزّ وجل أن يَحفظ أستاذنا الأستاذ فتح الله كولن * اللهم احفظْهُ من بين يدَيْه، ومن خلْفه * اللهم احفظْه عن يمينه وعن شماله * اللهم احفظه من فوقه ومن تحته * اللهم أَنِرْ قُلوبَنا بالنور الذي أَنَرْتَ قلبَه

به * اجْعل لنا يا نور السماوات والأرض نورًا في قلوبنا لا يَخْبو أبدًا * اللهم يا ربّنا وأدخلْنا معه في رحمتك برحمتك يا أرحم الراحمين، يا ربَّ العالمين * اللهم وتقبَّلْ منَّا أعمالَنا، واغفر لنا ذنوبَنا، واستُر عيوبنا، برحمتك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين * اللهم يا جميلَ السّتْر أدخلْنا في سترِك * اللهم يا جميل العفو أدْخلنا في عفْوِك * اللهم يا جميل الرحمة أدخلنا في رحمتك * اللهم يا جميلَ الجُود أدخلْنا في جُودك * وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيّدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلِّمْ تسليمًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين *

openkandl.com

المجدد والإرث النبوي [٩]

فما كان لشخصٍ مثلي جاء من المغرب الأقصى أن يتحدّث لمثل هذا الجمهور الكريم، في درسٍ أيّ درس.. وإنما الذي أستطيعه الآن أن أتحدّث عن انطباعاتي وعواطفي، والخطرات التي وقعتْ بقلبي أثناء زيارتي هذا البلد الكريم "تركيا"، والالتقاء مع هذه المدرسة الرائدة في هذا البلد، مدرسة الأستاذ فتح الله كولن.. لذلك فإنّما المنتظَر منّي هو هذا: أن أتحدّث عن انطباعاتي وعن ما وقَع بقلبي إزاء هذه الزيارة المباركة..

إن حركة التديّن التي يقودُها الأستاذ فتح الله كولن في هذا البلد من خلال ما رأيتُ من مظاهر متعدّدة، سواءٌ على المستوى الديني أو المستوى الثقافي أو المستوى الاقتصادي والمؤسَّسي، كلُّ ذلك إنما أكّد لي نُبوءَةً لرسول الله ﷺ تحدَّث بها في حديثٍ شريف.. ولهذا فسأُحاول أن أَعْرض هذه الانطباعات من خلال أحاديث للنبي ﷺ، ومن خلال قواعد يمكن استنباطها من القرآن الكريم ومن السنّة النبوية.. قواعد شرْعيّة يَسْتعملها علماء أصول الفقه في هذا المجال لقياس الحركات ما هو على الحق وما هو على الباطل..

---

[٩] محاضرة ألقاها الأستاذ المرحوم فريد الأنصاري في إسطنبول، أغسطس ٢٠٠٦م، وقد تم تفريغها من التسجيلات حيث حررت وأعدّت للنشر. (المحرر)

openkandil.com

تجديد الدين من خلال التحدّيات

إن حديث الرسول ﷺ الصحيح الذي فيه «إن الله يَبْعثُ لهذه الأمّة على رأس كلِّ مائة سنة مَنْ يُجَدِّدُ لها دينها».. لَنجِد له تفسيرًا، لا أقول لغويًّا أو بيانيًّا، ولكن نجد له تفسيرًا الآن، وفي هذه المرحلة بالذات من تاريخ الأمّة، تفسيرًا واقعيًّا من خلال حركةٍ دينيةٍ تسير في الأرض..

والحركات الإسلامية الدعَوية الآن في العالَم -سواء في العالَم العربي أو في غيره- كثيرةٌ جدًّا، وهي في مجموعها تُمثّل جُزْءً من هذا التفسير لهذا الحديث.. ولكنّي أَزْعُم -وسآتي بالبيّنات بإذن الله بالقواعد- أن هذا التجلّي للدعوة الإسلامية في شخص الأستاذ فتح الله كولن ومَنْ يتْبعه، أزْعُمُ أنّ هذا التجلّي لهذه الدعوة يُعْتَبَرُ من أَوْجِ المعاني الموجودة في هذا الحديث، وسأُبيّنُ ذلك بأدلّته بحول الله..

إن بعض شرّاح الحديث يَرَوْن بأن قول النبي ﷺ «إن الله يبْعث لهذه الأمّة على رأس كل مائةِ سنة مَنْ يُجَدِّدُ لها دينها».. بعضُهم رأى بأن رأْس المائة سنة يقَع على رأس المائة من كلّ تاريخٍ هجري، مثلاً سنة مائة هجرية؛ هكذا يرى بعضُهم.. فإذن، مائة وواحد، واثنين، وثلاثة، يجب أن يقع التجديد.. المائة الثانية؛ أي مائتين وأربعة يرى بعضهم أنه هذا بداية التجديد، مائتين وثلاثة هجرية، وهكذا وهكذا.. هكذا تصوّروا..

لكن الأمر عند آخرين من العلماء غير ذلك، والدليل عليه -وهذا هو الذي أرجّحهُ، أي المذهب الثاني وليس الأوّل- أنّ التجديد إنّما يقع حيثُ تكون الحاجة إليه، نعم حيثُ تكون الحاجة إليه.. هذا واحد.. لأنّ تجديد الرسالة النبوية طيلة القرون الهجرية الثلاث الأولى، أولاً لم تكن تدعو إليه حاجة، وإنما كان الدين مستنيرًا بصورة عاليةٍ جدًّا.. والدليل

على ذلك «خير القرون قرني هذا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».. فأصحاب رسول الله ﷺ الذين عاشوا معه، والتابعون لهم، الذين جاؤوا بعد وفاة النبي ﷺ، ومَن تبِعهم (أي أتباع التابعين) كلهم عاشوا على نمطٍ واحدٍ من الدين المستوى الراقي، وإنّما احتاجت الأمّة للتجديد فعلاً مع بداية القرن الرابع الهجري.. هنالك فعلاً حدث انحراف على المستوى العقائدي، حدث انحراف على مستوى السلوك التربوي، حدث انحراف على مستوى طلَب العلوم الشرعية.. واحتاجت الأمة فعلاً آنئذ إلى التجديد..

فلذلك -إذن- كان القرن الرابع الهجري قرنَ حركة علْمية مُجَدِّدة، ظهر هنالك محدِّثون، وظهر هنالك مفسّرون، وكثير من العلماء في التربية وفي الدين وفي السلوك، الذين فعلاً حاولوا تجديد الدين لذلك القرن.. حتى جاء الإمام أبو حامد الغزالي القرن الخامس الهجري حاول أن يَرجع بالعلوم الإسلامية إلى أصلها الأول بطريقةٍ ما، أي أن يجعلها علومًا تربويةً..

لا أريد أن أُطيل في هذا السرد التاريخي وأنْتقل مباشرة إلى العصور المتأخّرة التي نعيش فيها الآن، لنتحدّث في موضوعنا.. وإنما الذي ذكرتُه عبارةٌ عن تقديم مما نحن فيه..

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالعدّ الميلادي (وهو ما يُوازي نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر بالعدّ الهجري) وقَع زلزال للأمّة الإسلامية جمعاء؛ بحيث تمزّق شمْلُها وتشتَّتْ، وقد كانت أمّةً واحدةً متّحدة ولو كانت في وضع منحطّ من الناحية الحضارية، لكنها كانت موحَّدة، فتمزَّقت الأمة الإسلامية.. وبعد

هذا التمزُّق الذي حدث في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين، نشأتْ حركات تجديدية في العالَم الإسلامي في وقتٍ واحد..

ففي هذه المرحلة أيضًا، قلتُ الربُع الأول من القرن العشرين (وهو الرُبُع الأول من القرن الرابع عشر الهجري) كانت مرحلة لميلاد نهضة تجديدية في الأمة.. وسأُعطي بعض الأسماء.. وتوافقت بصورة عجيبة وغريبة بحيثُ في سنة ألف وتسعمائة وثمانية وعشرين (١٩٢٨م) بالذات بدأ بديع الزمان النورسي هنا في تركيا يكْتُب رسائل النور... العجيب في هذه السنة (١٩٢٨م) بالذات أَسّس الأستاذ حسن البنّا رحمه الله "دعوة الإخوان" في مصر.. وتقريبًا في تلك المرحلة أو بُعيدها بقليل -ولا عبْرة بسنةٍ أو سنيتَين في حركة التاريخ والحضارة- تحرّك الأستاذ محمد إلياس الكنْدهلوي في الهند، في نفس الظرف.. وأيضًا بعد ذلك بقليل شرع أبو الأعلى المودودي في باكستان ببناء تصوّراته بنشْر كتبه وفكره الإسلامي الذي جدّد كثيرًا من الثقافة الإسلامية.. فإذن هذه مرحلة نشأ خلالها مجدّدون كبار وجّهوا تاريخ الأمّة، ولا تزال الأمّة الإسلامية إلى الآن تَقْتات على فكرهم وعلى مَنْتُوجهم..

إن حركة التجديد تلك التي تحدّثتُ عنها كانت تَقَع في الظروف التي كانت الأمّة قد وقعت تحت الاستعمار، ولا تزال تَقَع.. كانت وقعت تحت الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي جُملةً، ومازال الاستعمار آنئذ يَزيد ويَكتسح في كثير من دول العالم الإسلامي.. الآن في هذا الظرف التاريخي الذي نعيشه بالعدّ الهجري في الرّبُع الأول من القرن الخامس عشر الهجري، وبالعدّ الميلادي في بداية القرن الواحد والعشرين.. قد

مضى على المرحلة التي انطلق فيها أولئك المجدِّدون الذين ذكرناهم قبل قليل مائة سنة.. مضت مائة سنة إذن على الانهيار.. والحركة التي ينْبغي أن تُجدِّد الآن يجب أن تكون في هذا الظرف مولودةً لتُعطي ثمارَها الكُبْرى في السنوات المقْبلة القريبة بإذن الله تعالى.

هذا التفسير لهذا الحديث بهذا النمط من العدّ التاريخي الآن قائم أساسًا على أنّ الظروف التي وَلَّدتْ التجْديد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إن هذه الظروف تغيّرتْ.. عندنا الآن ظروف عالَمية أخرى؛ عندنا ما يُسَمَّى بـ"العَولمة" في صورتها الثقافية والإعلامية والاقتصادية.. بهذا الوجه الكالح المكْتَسِح لكلّ العالَم الآن، ما ينْبغي أبدًا أن يكون المنهج القديم الذي نشأ تحت تأثير تلك الظلمات القديمة هو نفسه المنهج الذي يقوم بتجديد الدين في هذه المرحلة.. لأنّ التحدّيات اختلفت؛ الاستعمار القديم كان يحْتلّ الأوطان دون أن يحتلّ الإنسان، بينما الاستعمار الجديد يحتلّ الإنسان قبل أن يحتلّ الأوطان..

إذن بالعدّ الذي ذكرتُ، المفروض أنّ حركة التجديد هذه الجديدة يُمكن أن تعطي ثمارَها في ظرف العشرين سنة المقبلة، أو ما يُقارب ذلك.. لا يُمكن أن يكون لحركةٍ تُعطي ثمارَها في ظرف عشرين سنة مقْبلة، الآن فقط تُولَد؛ هذا لا يكون في ميزان التاريخ، وحركة الحضارة.. لا.. بل ينبغي أن تكون هذه الحركة الآن ناضِجة تُنْتِج..

فلذلك أنا أزعم أن أبرَزَ دعوةٍ وأقْربَ حركةٍ لمعنى الحديث أولاً، ثم للحاجة المطلوبة الآن حضاريًّا ثانيًا، هو هذا الاتّجاه الذي يمثّله الأستاذ فتح الله كولن.. لماذا؟ لأنّ الاستعمار سابقًا احتلّ الأوطان قبل أن يحتلّ الإنسان؛ فكانت الحركية التجديدية القديمة غالبًا ما تتجه إلى تحرير

الأوطان.. بينما هذا الاستعمار الجديد الذي استعمر الإنسان، استعمر فكرَه، استعمر أحلامَه، استعمر عقلَه ودماغَه؛ ينبغي أن تكون هذه الحركية قائمةً أساسًا على تحرير الإنسان.. وما وجدتُ شخصًا أو دعوةً قامَ فكرُها فعلاً على تحرير الإنسان كما وجدتُ كتُبَ الأستاذ فتح الله كولن فعلاً.

انتشار رسالة الإسلام على جميع المعمورة

الأحاديث النبوية الشريفة التي تُشير إلى أنّ الإسلام في آخر الزمان سيدْخُل كلَّ المعمورة، سيُصبح ظاهرًا (أي غالبًا ومؤثّرًا وله الريادة من الناحية المعنوية) كثيرة جدًّا، من بينها حديث النبي ﷺ «إن الدين بين يدي الساعة لنْ يَبْقى بيتُ مدَرٍ ولا وبَرٍ إلا دخلَه».. أي أنه سيُسيطر في المدن والبوادي، هذا معنى "المدَر" و"الوبَر"، حتّى يكون غالبًا وظاهرًا في كلّ مكان..

هذا الحديث النبوي لا يمكن أن يتحقّق إلا في مثل هذه الظروف التاريخية التي نعيشها، حيثُ جعَلت العَولمة -كما يعْلَم الجميع- العالَم كلَّه عبارةً -كما يُعبّرون اليوم في الإعلام والسياسة عبارة- عن قرية صغيرة.. ما يحْدث في أي نُقطة من الكون، يصل خبرُه -لا أقول بعد قليل ولكن- في اللحظة التي يَحْدُثُ فيها.. فلذلك إذن ما أسرَع وصول الفكر الآن إلى أيّ مكان في العالَم، وما أسرع قابلية الإنسان الآن للتواصل.! فإذن الظروف كلُّها مهيَّئة.. هذه العولمة التي أُنْشِئتْ لأغراض، في كثير من الأحيان يُسْتَهدَف بها الإسلام بالنقض وبالتدمير واستضعاف الشعوب الفقيرة، لعلّ الله جلّ وعلا أن يَجْعلها وسيلةً لتحقيق نبوءَة رسوله ﷺ في هذا المعني الذي نَذكر.

إذن لا بدّ من مُؤهِلاَتٍ أخرى وهي "مؤهلات الإنسان" الذي سيقوم بهذه المهمّة.. الإنسان الذي سيقوم بهذه المهمّة لا بدّ أن يكون إنسانًا له قُدرة عالية على التواصل، وأن يكون في موقعٍ جُغْرافي كما يُسمّونه جيو-سياسي، أي له تأثير وله ارتباطات بالمحيط جميعًا وبكثيرٍ من القارّات..

وما أحسب هذا الموقع إلا للبلاد التركية عمومًا كما كان في السابق -ولا يزال الآن- بما هي مطلّة على أوروبّا، وبما تجمعه تحتها كثيرًا من القارّات: آسيا وأوربا وإفريقيا.. ولها موقع مؤثّر جدًّا من الناحية الجغرافية.. الإنسان الذي يسكُن هنا لعلّه يكون أليق بهذه المهمّة..

وراثة سرّ النبوّة

بقيت لنا علامةٌ واحدة.. حديث رسول الله ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء».. هذا الحديث قد حكم على العالِم الْمُجدِّد بأن يكون له "سرّ الإرث".. سر الإرث هذا قد جعل الوظيفة التجديدية عالِية جدًّا.. بحيث لا يستطيعها كلّ مَن يدّعيها.. ومن يدّعي ذلك الآن في العالَم، كثير.. لكن لا بدّ من بُرهان عمليّ ليكون الإنسان صاحب سرّ إرث النبوة فعلاً. هذا الإرث -الذي هو إرث العلم النبويّ- ليس علمًا بالمعنى المعلوماتي بالكلمة، لأن المعلومات توجد عند كثير من الناس حتّى الفُجّار.. وقد تجد العالِم يُفتي في الفقه وفي الحديث، لكن لا يصلح لشيء من حيثُ الدين، فإذن هذا ليس بوارث.. وإنما العلْم الحقّ الذي يُعتبَر "إرثًا" ويُعتبَر "سرًّا وعلامةً" هو الإرث الذي يُعطي صاحبه خصائص النبوّة، لا أقول من حيثُ الوحي، ولكن من حيث الأخلاق.. هذه الخصائص أعلاها "الزهد في الدنيا" بصورةٍ لا تكاد تُجارى، أي لا تستطيع أن تُنافس هذا النور من

الزهد في مثل هذا الشخص.. ولذك قلتُ قلّما يُوجَد مثل هذا الإنسان، وقلَّما يجُود به الزمان على هذا المستوى العالي جدًّا..

حينما نطبّق هذه المعاني النبوية على الواقع الدعَوي في العالَم وننزّلها -بلا مُجاملة- نجد الأستاذ فتح الله كولن -حفظه الله- في المقدِّمة، ومن السابقين بآلاف الكيلومترات والأمْيال.. نظرًا لأنّه -كما تواترت الأخبار عنه، وكما تعلمون جميعًا- شخصٌ عاش غريبًا في وطنه، وعاش غريبًا خارج وطنه.. لا يملك من الناحية المادّية شيئًا، ويملك كلَّ شيء.. هذا النوع فعلاً خاصّية من خصائص الإرث النبوي.. كذلك كان رسول الله ﷺ وإنما هو ﷺ قُدْوةٌ في ذلك لغيره، ولِمَن تبعه بإحسان في هذا المعنى إلى يوم الدين.. رسول الله ﷺ كانت له خزائن الدنيا كلّها بين يديه؛ أموال الزكَوات، والغنائم، كل شيء، كل شيء.. لكن في شخصه كان فقيرًا عليه الصلاة والسلام.. كما حدَّثت عائشةُ في الحديث الصحيح «أن النار لم تكن تشتعل في مَوقد رسول الله ﷺ الشهر والشهرَين، ويعيش آلُ بيت رسول الله على الأسودين: الماء والدقل»، والدقل هو رديء التمر..

هذا المعنى -إذن- الذي وجدناه في حياة رسول الله ﷺ وجعله مقياسًا فعلاً لمن أراد أن يرث السرّ، من الصعب جدًّا أن يتمثّله الإنسان في مثل هذا الزمان، زمان الوفْرة، الوفرة في كل شيء.. زمان الغنى والرخاء في كل شيء.. صعبٌ جدًّا أن يتمثّله الإنسان وأن يتحقّقه.. ونحن نعلم أن كثيرًا من أرباب الأحزاب والحركات والدُّعاة، يعيشون عيش الملوك وعيش الرؤساء في حياتهم الخاصة.. بينما وجدنا الأستاذ فتح الله بما تواتر عنه من أخبار، يعيش على المنْهاج النبوي فعلاً، قلتُ عاش غريبًا في وطنه، ولا يزال يعيش الآن غريبًا خارج وطنه.. هذا معنى عظيم، هذا سر،

هذه علامة بحيثُ أنه لو أراد المال لأغدقت عليه الدنيا، وأنتم تعلمون هذا.. لكنه مع ذلك يتقلّل ويعيش فعلاً كما في حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه «ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»..

إنّي على يقين بأن هذا الرجل بفكره وبسمْته وبالعلامات التي ذكرتُ في حقّه ليُعتبَر من السابقين في حركة التجديد في هذا العصر، وأحسب أن كثيرًا من المجدّدين في مواقع أخرى وكثيرًا من المصلحين في بلاد أخرى من العالم العربي وغيره سيرجعون إلى فكره سواء آجلاً أو عاجلاً.. لأنه هو الفكر السالِك فعلاً إلى الله جلّ وعَلا.. والذي به يقوم تجديد هذه الأمّة ولأنّه الأكثر استجابةً إلى المقاييس القرآنية والمقاييس النبوية..

التلاوة والتزكية والتعليم

إن الأستاذ فتح الله كولن اشتغل بالقرآن الكريم.. واشتغل بالتعليم لحقائق القرآن وللحكْمة.. واشتغل كذلك بالتزكية والتربية.. هذه الأمور الأربعة، ما أعلم شخصيًّا أنّها اجتمعتْ كاملةً في شخص في هذا الزمان.. كانت في شخص بديع الزمان سعيد النورسي في القرن السابق، في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.. الآن تتجلّى بشكلٍ واضح في هذا الشخص المجدِّد.. لأن هذه الأمور الأربعة علاماتٌ كُبرى وهي خصائص دعوة رسول الله ﷺ في القرآن الكريم. في غير ما سياق، وفي غير ما آية، يقول الحق جلّ وعَلا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ تلاوة الآيات والاهتمام بالقرآن الكريم.. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ التربية والتزكية السلوكية.. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ

كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(الْجُمُعَة:٢). هذه الأربعة هي وظائف النبوّة: "تلاوة القرآن" و"التزكية" أي التربية الروحية، و"التعليم" لحقائق الإسلام ولـ"الحكمة"..

قبل سنة كنتُ أقرأ كتاب "الموازين" للأستاذ فتح الله كولن.. حينما بدأتُ أقرأ في الصفحات الأولى قلتُ "والله هذه حكَم منْثورة"، وقلّما تجد الحكَم تخرج من أفواه الرجال في هذا الزمان.. نعم "الحقائق العلْمية" موجودة عند الناس بكثير، لكن "الحكَم" نادرةٌ جدًّا.. والآن بين يديّ كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" كلّه حكَم في القمّة، وفي غاية الحكْمة.. من السهل أن تنال المعلومات، تقرأ في كتب التفسير والحديث وحدك وبغير شيخ تحفظ الكثير من أحكام الإسلام؛ لكنّ الحكْمة لا يُؤتاها إلا الرجُل الذي صَفَا قلبُه، واستقامتْ سريرتُه، وأخلصتْ روحُه، وخلُصتْ لله الواحد القهّار.. واللهُ جلّ وعَلا يقول ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البَقَرَة:٢٦٩).

وارثوا الأرض

آثار المجدّدين لا تكون في سنة أو في سنتين، لأن حركة التجديد هي حركة حضارية.. وحركة الحضارة تقَع في جيل، لا بدّ من جيل.. ولذلك فإن أعظم نتيجةٍ حقّقها الأستاذ فتح الله كولن هو "أنتم".. أنتم الذين ستحملون هذه الرسالة.. أنتم أمَل الأمّة.. أنتم نتيجةُ التجديد.. وهذا الجمْع في مثل هذا البلد (تركيا) بظروفه التاريخية المعروفة أمرٌ غير عاديٍّ تمامًا.. إنه يعبّر عن حقيقةٍ ربّانيةٍ وهي أن الله جَلّ وعَلا يحقّق الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ال

صَّالِحُونَ﴾(الأَنْبِيَاء:١٠٥).

ولذلك يجب أن نحمد الله جميعًا ويجب أن تحمدوا الله أنتم أيضًا نظرًا لأنّكم وُلدتم وقَدّر الله أن تكونوا في هذا الموقع الجغرافي بالذات.. وجئتم في هذه المرحلة التاريخية بالذات؛ كان يمكن أن نكون قبلها في مرحلة الانحدار.. ولكن الله قدّر أن نأتي في مرحلة الصعود، وهي مرحلة صعبة، تمامًا كمرحلة الولادة، والأجْرُ فيها عظيم.. ههنا وفي مثل هذه الظروف يتحقّق قول النبي ﷺ عن «القابض على دينه أنه كالقابض على الجمْر، وأن الأجر فيه يكون مضاعفًا على خمْسين، وإن الشهيد منهم كأجر خمسين شهيدًا منكم، قالوا "أمنَّا أم منهم يا رسول الله"، قال "بل منكم"».. أي أن أجر بركة الصحابة عالية لا تُنال، ولكن الله جعل الأجر لمن يعيش في مثل هذه الظروف التجديدية المنْتجة حيث التيّار يكون معاكسًا، وأنت تُجدِّد في داخل الظلمات بأمَل عظيم، جعل الله لك أجرًا مضاعَفًا على خمسين مما رتبه الله جلّ وعَلا لأصحاب رسول الله ﷺ. فلذلك إذن هذه نعمة -ولا شكّ في ذلك- كُبْرى، لكنها مسؤولية كبرى أيضًا.. نسأل الله أن يُوفّقنا جميعًا لحمْلها..

أقول قول هذا وأستغفر الله لي ولكم..

جمع شمل الأمّة

سؤال: هناك شبْه انفصال وقطيعة بين العالم العربي والعالَم التركي.. هل يمكن لهذه الدعوة المباركة أن تكون جسْرًا لإزالة هذه القطيعة وتأسيس مؤاخاة بين هذين العالَمين؟

هذه القطيعة التي كانت بين العالم العربي والعالم التركي بفضل الله

أولاً، ثم بفضل التكنولوجيا الغربية انتهت.. لأنّ هذه العولمة الجديدة من فضائلها وبركاتها أن جمعت الأمّة الإسلامية مرّة أخرى.

لقد كنّا ندرس في كتب التاريخ في المدارس ونحن صغار، وأيضًا في مقرَّر الباكَلُوريا ببلاد المغرب، كنّا ندرس حول الاستعمار، هكذا "الاستعمار التركي للعالَم العربي".. ولكن بعد ذلك اكتشفنا أن هذا الأمر كلُّه كذِب، وإنما الأمر عبارة عن خلافةٍ إسلامية كانت رائدة في العالَم الإسلامي.. وهي التي حمَتْ بَيضة الإسلام أكثر من خمسة قرون.. وأنّها فعلاً مثّلتْ الوحْدةَ الإسلامة كأعلى ما يكون التمثيل مدّةً طويلة.. حمَلتْ راية الإسلام بعد سقوط الأندلس أزمنةً عديدة جدًّا.. الاستعمار بفكره وبغَزْوه وبعسكره استطاع أن يمزّق العالَم الإسلامي كما هو معروف بالتمْزيق الذي لا يزال إلى الآن.. واستطاع أن يَبثّ الفكر القومي العنْصري بين كثيرٍ من الشعوب ممّا أدّى إلى زيادةٍ في التمزيق.. لكن -والحمد لله- في إطار هذه اللّطَمات (يُسمّيها بديع الزمان سعيد النورسي "لطَمات الرحمة"، صفَعات تتلقّاها الأمّة اليوم يومًا بعد يوم)، تأكّد للجميع أننا نُضْرَب ليس لأنّنا أتراك، ولا لأنّنا عرب، ولا لأنّنا بُوسْنة، ولا لأنّنا شِيشان، ولا لأننا فلسطِينيين، وإنما نُضْرَب لأنّنا مسلمون..

هذا الجامع بيننا جميعًا؛ الكلُّ يُضْرَب، ونُضْرَب لأنّنا مسلمون.. فلهذا إذن حدَث وعْيٌ كبير وعميق جدًّا بين كل شباب العالَم الإسلامي أن الأمر مرجعه الإسلام، وانتهتْ هذه الخرافة.. هذه القطيعة بين العالَم العربي وغير العربي انتهت الآن، لا تزال شكليًّا على المستوى السياسي ومستوى الحدود، لكن وجْدانيًّا -وهذا الأهمّ- وجدانيًّا انتهتْ، وإلى الأبد بإذن الله ﷻ.. ولا شك دعوةُ الإسلام -سواء التي يقودها الأستاذ فتح الله كولن

أو غيره- هذه الدعوة الآن تقوم بتجميع هذه الأوصال، وبربط الصِّلات، وخاصة أن الوسائل الآن -الإلكترونية، والإيميلات، والإنترنيت، كل وسائل الاتصال الآن- وصَلتْ أطراف العالَم الإسلامي، وبها إن شاء الله جلّ وعلا سيكون الفتح مرةً أخرى..

بشرى المستقبل

سؤال: الأستاذ بديع الزمان قال: "الدولة العثمانية حامل بأوربا وستلد يومًا ما".. كيف نحلّل أوروبّا الحالية في ظل هذا القول؟

أوروبّا وأمريكا -كما يحدّثنا الذين كانوا هناك، وكما هو أيضًا واضح من الإعلام، ومن الواجهة السياسية لأوروبّا، ونسمّيه بصفة عامّة "الغرب"- له وجهان: وجهة سياسي، ووجه شعبي..

فالوجه السياسي ضدّ الإسلام، وهذا واضح جدًّا.. لأنه استطاعت التيّارات المتطرّفة أن تحتويَه وأن تَغزوه.. فإذن هي تسيّره..

لكن الشعوب الغربية، شعوب في حقيقة الأمر تعيش خواءً روحيًّا، وليس لها بديل غيرُ الإسلام بحول الله جلّ وعلا.. ولهذا نجد كثيرًا من المفكّرين وكثيرًا من الفلاسفة عندهم يُسْلمون، أسماء مشهورة تسلم في فرنسا وفي غير فرنسا.. وقد الْتقَينا ببعضهم. وأنا ذكرتُ قبل قليل أن التحوّلات الحضارية تتمّ عبرَ جيل.. المنْتظَر إذن أن يقَع تحوّلٌ ما، لكن في المستقبل القريب.. أنا تحدّثتُ عن حوالي عشرين سنة أو بضع وعشرين سنة.. وهذا الكلام لا أقوله وحدي، كثيرٌ من الناس وكثير من الدُّعاة قالوه في الشرق وفي الغرب.. بناءً على الأحاديث النبوية وبناءً أيضًا على ما يُسمّى بـ"علم الْمُسْتَقبليّات".. توقُّعات الآن بناءً على إحصائيّات واقعة،

وبناءً أيضًا على ظروفٍ تعيشها الأمّةُ الآن، سيُولّد كلُّ هذا المخاض، ظروفًا أخرى مختلفةً تمامًا..

طبعًا ذلك مرتبط أيضًا بحياتنا الدينية نحن.. وحياتُنا الدينية -والحمد لله- رغم مظاهر التفسّخ الخلُقي التي تَجري في العالَم الإسلامي كلِّه -سواء في بلاد العجَم وفي بلاد العرَب- هذا التفسّخ الخلُقي هو مَوْجَة لا جِذْرَ لها ولا أصل لها، وإنما الحقيقة هو هذا الرجوعُ إلى الدين بين صفوف الشباب الواعين، يملأ المساجد، يجد نفسَه في الصفوف الأولى في المسجد من صلاة الفجر.. هذا الأمر -أيها الإخوة الكرام- ظاهرةٌ ربَّانية لا يُمكن أبدًا أن يقال إنه جُهْدُ البشَر.. هذا مستحيل أن يصنعه بشَر.. وإنما إذا صار لبشَرٍ ما أثر في هذا الأمر فمعناها أنّه رجلٌ ملهَم، أن الله ألْهمَه شيئًا، لأنّ هذه حركة قويّةٌ جدًّا تقع في كل مكان.. ونحن نعلم أن كثيرًا من المعاهد الإسلامية والجيل السابق حدّثنا عن هذا، ومنهم آباؤُنا، كثير من المعاهد الإسلامية كانوا يدرسون العلومَ الشرعية، لكن لمْ يكونوا يصلّون.. كان شيئًا غريبًا جدًّا؛ يقرأون الدين، يقرأون أحكامَ الشريعة، سيفْتون، لكن لا دينَ لهم.. الآن نجد المتديّنين الأطبّاء من الفزيائيّين، من اختصاصات دقيقة جدًّا في مجال الفلَك وفي غير ذلك.. هذا الأمر -كما ذكرتُ قبل قليل- ليس عاديًّا، هذا نباتٌ يُنْبتُه الله جلّ وعلا.. ولذلك فعلاً الغربُ سيلِدُ الإسلام في المستقبل بإذن الله عزّ وجل، ولكن أيضًا في الوقت الذي سيُولَد الإسلام عندنا..

نحن تلك النبوءة أو الفكرة التي قالها بديعُ الزمان النورسي بـ"أنّ تركيا حُبْلَى بأوروبّا"، ولدتْ منذُ زمان، وهذا انتهى.. الآن نعيش أوروبّا بشكلها ليس في تركيا فقط، ولكن في العالَم العربي أيضًا، وستموت..

هذه التي وُلدتْ ستنتهي، لأن الجيل الجديد سينسخها، تلك مرحلتان.. وبديع الزمان النورسي في كتُبه يقول: "يا إخوتي، يا مَن يسمعون كلامي بعد خمسين سنة".. لأنّه كان يعرف بأنّ تركيا ستلد أوروبا قريبًا -وقد ولدتها- ولكن ستعيش حوالَي خمسين سنة وتنتهي.. لا أتحدّث من الناحية السياسية، بل أتحدّث من الناحية الحضارية.. أي أن الجيل الذي يأتي بعدُ (أي حوالَي بعد خمسين سنة) سيكون جيلاً متديّنًا.. أحسِبُ أن هذا الجيل بدأ الآن وأنّكم أنتم طلائعه بإذن الله..

فقه السيرة و"النور الخالد"

سؤال آخر: كيف تحلّلون كتاب "النور الخالد" من ناحية فقه السيرة؟

كتاب "النور الخالد" للأستاذ فتح الله كولن حفظه الله كتابٌ في "منهج فقه السيرة"، وليس فقط في "فقه السيرة"، فرقٌ بينهم.. فقه السيرة كُتب، كتبها الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، محمد الغزالي، وغيرُهما كتَب في فقه السيرة.. كتابات قليلة.. لكن "مَنهج" أي كيف يُمكن أن نَرسم منهج حياة رسول الله ﷺ، وهذه الدعوة ذُكرت عند بعض العلماء.. لكن الذي نفّذها فعليًّا هو الأستاذ فتح الله من خلال كتاب "النور الخالد"..

ما المقصود بهذا "المنهج"؟ المقصود به أنّ الذين كتَبوا في السيرة وفي فقهها، كتبوا السيرةَ العَسْكريّة للرسول ﷺ، فقط.. إذا قرأت كتاب "السيرة" لابن هشام، أو لغيره، وأيضًا الذين كتبوا في فقه السيرة كالبوطي مثلاً، كتابٌ جيّد، لكن يتحدّث عن جانبٍ واحدٍ من شخصيّة رسول الله ﷺ، وهو الجانب العسكري.. تَتَبَّع الدّعوى باعتبارها حركةً عسكريّةً؛ تاريخ الغزوات، تاريخ الأمن والسلم، الحرب والصلح.. كلُّ هذا تاريخ

عسكري.. لكن أين رسول الله ﷺ باعتباره أبًا، باعتباره زوجًا، أين هو ﷺ في حالة خلَواته؟ في بَيْعه وشِرائه، في حالة يُسْره وعُسْره؟ في أحواله النفسيّة إذا غضب، إذا رَضِي؟ سيرةُ الإنسان في رسول الله ﷺ ما كتبَها أحدٌ من قبلُ.. وتُعتبر كتابة "النور الخالد" أوّلَ مُحاولة من هذا الطراز.

مسك الختام

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك؛ عمِلْنا سوءً وظلَمنا أنفسَنا، فاغفر لنا، فإنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت * اللهم ربّنا أعطِ أنفسَنا تقواها، وزكّها أنتَ خير من زكّاها، أنتَ وليّها ومولاها * اللهم أعنّا على ذكرك وشكْرك وحسن عبادتك، واجعلنا من التوّابين واجعلنا من المتطهّرين * اللهم احفظنا في ديننا، واحفظنا في أبداننا، واحفظنا في أهلينا بما تحفظ به عبادَك وأولياءك * اللهم يا ربّنا نسألك باسمك الأعظم الذي إذا سُئلْتَ به أجبتَ، وإذا سئلْتَ به أعطيتَ، نسألك يا مولانا أن تجعل القرآن الكريم ربيعَ قلوبنا، وجَلاءَ غمّنا وهمّنا، برحمتك يا أرحم الراحمين، يا ربّ العالَمين * اللهم طهّرْ قلوبَنا، واغفر ذنوبنا، وحصّنْ فروجنا * اللهم وأعنّا على غضّ أبصارنا، وثبّتنا اللهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم ثبّتْنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم ثبّتْنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة * يا مُقَلِّب القلوب ثبّتْ قلوبَنا على دينك * اللهم إنّا نعوذ بك من الفتَن ما ظهر منْها وما بطَن * اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ظاهرةً وباطنة، ونعوذ بك من الفتن مُقْبِلة ومُدْبرةً * اللهم يا حفيظ، يا سلام، سلِّمْنا وأمِّنَّا بأمْنك وسلامك *

جولة في عالم الأستاذ فتح الله كولن [١٠]

سؤال: ما هي المعاني التي قرأتها في وجوه التجار المحسنين والشباب العاملين من أبناء دعوة الأستاذ فتح الله كولن أثناء التقائك بهم؟

ليس فقط الشباب وطلاب الجامعة من هؤلاء الرجال، ليس هذا فقط، ولكن مشاهدات كلّ التجلّيات.. نعم إنّني أسمّيها "التجلّيات"، التجلّيات النورانية التي تجلّت في دعوة معماريّة.. و"المعمار" هاهنا ليس فقط البناء، ولكن المعمار هو الإنسان الذي يسكن هذا البناء، والذي يصنع هذا البناء، أي "الروح".. "المعمار" روح، و"العمران" روح.. هذا الروح العمراني المتميّز الذي نهض الآن في تركيا وله تجلّيات عديدة على الإنسان من كل الأصناف ومن كل المؤسسات على المستوى الثقافي والمستوى الاقتصادي..الخ. في حقيقة الأمر هي تجلّيات شُمولية، لا يمْكن أبدًا أن أحْصُرها في الجانب الطلاّبي، أو جانب الأصناف من التجّار، نظرًا لأن التأثّر الذي حصل في وجداني وفي قلبي وخاطري، كان من هذه الجهات جميعًا..

في مثل هذه اللقاءات توصّلنا إلى نتيجة واحدة: أن هذا الأمر هو أثر

---

[١٠] جرت هذه المحادثة الودية بين الأستاذ المرحوم فريد الأنصاري والأستاذ نوزاد صواش في أغسطس ٢٠٠٦م في إسطنبول. نتقاسمها مع القراء الأفاضل.

ربّاني إلهي سامٍ عالٍ.. يستحيل أن يكون في مقدور البشر وفي طاقته.. فمعنى ذلك أننا إذا شاهدنا شخصًا صنع كلَّ هذه الكرامات مثل الأستاذ فتح الله كولن، فلا ينبغي أبدًا أن نقول إن هذا الشخص بذكائه وبعبقريته صَنع هذا، لا يمكن أبدًا.. أنا شخصيًّا لحدّ الساعة لا يمكن أن يدْخل في دماغي هذا المعنى.. ولكن الذي وقر في قلبي أنه شخص مُؤيَّد، هنالك تأييد إلهي، هنالك تسديد ربّاني، هنالك اتّصال غيبي عند هذا الشخص بالملإ الأعلى، فيستمدّ قوةً خارقةً، ويستمدُّ مددًا وسنَدًا إلهيًّا لسرٍّ هو فيه، ولذلك أَنتج ما أنتج من هذا العمران.

سر وراثة النبوة

لقد وصفت الأستاذ فتح الله كولن بـ"وارث السر".. فما هذا السر؟

إذا أردتَ أنْ تسمّي هذا من حيث الاصطلاح، تقول "وراثة النبوّة".. لكن الاصطلاح يدلّ على معنى هو الذي ينبغي شرحه. لقد جاء في الحديث أن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكنّهم ورَّثوا العلم. هذه "الإرث" ليس بالمعنى الجافّ للكلمة.. فكثيرٌ منَّا انصرف إلى العلم، ليكون وارثًا للنبي، وقالوا هو "العلم الشرعي"، فتعلّموا الفقهَ والأصول، وكذا وكذا، لكن ما أنتجوا شيئًا..

إذا دقّقنا النظر في حقيقة الأمر، ما "العلم" المقصود إذنْ في الحديث النبوي الشريف؟ "العلم" هو العلم الذي كان عند رسول الله ﷺ.. والعلم الذي كان عند رسول الله ﷺ كان علمًا مخصوصًا. أقصِدُ بـ"الخصوصية" هذه أنّه علمٌ نظرًا لأنّه عن الله، في كتابه وفي السنّة النبويّة التي هي مصدرٌ ثانٍ للتشريع. هنالك صلْبُ العلم، ومظاهر العلم. "صلب العلم" هو ذلك

المعنى الوجداني القلْبي الذي كان عند رسول الله ﷺ. سيّدُنا محمد ﷺ، يحدّث في أحاديث صحيحة أنّه كان خليلاً لله كما كان إبراهيم عليه السلام خليلاً لله.. ومن ذلك مثلاً حديثُه ﷺ: «إن الله اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً»، وأيضًا في حديث آخر «لو كنتُ مُتّخِذًا خليلاً لاتّخذتُ ابن أبي قُحافة [أي سيّدنا أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه] خليلاً، ولكن صاحبكم اتّخذ الرحمنَ خليلاً».. الخلّة هذه أعلى درجة من الصفاء الروحي على الإطلاق، وأعلى مرتبة من الولاية، وأعلى مرتبة من المحبّة التي لمْ يبْلُغْها وليٌّ ولا نبيٌّ قطّ، إلا إبراهيم عليه السلام وسيّدنا محمد عليه أفضل الصلوات والتسليم..

إذن هنالك سرّ كان عند رسول الله ﷺ، به صار عليًّا عند الله جلّ وعَلا.. فمِنْ هذا السرّ يَقْبِسُ الأولياء والصدّيقون والصالحون، أي يأخذون قبَس الخير والنور والعلم. والذي لم يَقْبِس من هذا المعنى، لا علْمَ له، لأن الله في مُحكَم الكتاب يقول قاصدًا الذي كان عند رسول الله ﷺ ثم عند الصالحين والصدّيقين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.. وإذا أردنا أن نطبّق هذه الآية حرفيًّا، أي أن نأخذ معنى "العلم" بالعلوم الشرعية، لوجدْنا علماء في الشريعة -مع الأسف- ليسوا كذلك.. فكيف إذن تنطبق الآية على واقعٍ غير صحيح.. وإنّما القصد أن العلمَ المقصودَ هو "العلم الذي فيه إرثُ النبوّة" أي أن الإنسان العالِم الحقّ اقتبس من نور النبوّة الوِلايةَ..

إذن هذا المعنى الذي هو "إرثُ النبوّة" هو الذي نجده فعلاً متجلّيًا في هذه الآثار، ممّا يدلّ على أن الإنسان الذي استطاع أن يصل وأن يُنتج آثارًا مثل هذه، لا شكّ وأن له إرْثًا من هذا المعنى.. هذا واضح والحمد

لله من الشهادات ومِن كتُب الأستاذ فتح الله، وممّن تتلمذ عليه.. لا شكّ أن هنالك تأثيرًا غريبًا وواضحًا جدًّا وقويًّا..

أوصاف المجدد

هل المجددون حملة هذا "السر"؟

حديث النبي ﷺ «إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة مَن يُجدِّد لها دينها».. هذا الحديث إذا أخذناه بالمعنى الذي ذكرت من "وراثة النبوة"، وبمعنى العلم، بالمعنى الخاص الذي هو في القرآن وفي السنّة النبوية، نجد فعلاً أنّ البشارات وكل الدلائل تشير -وتصرّح أكثر- إلى أنّ الأستاذ فتح الله يُعتبَر من روّاد التجديد في هذه المرحلة. وهنالك أدلّة أيضًا تاريخية في أنّنا نعيش الآن مرحلةً تاريخيةً على مستوى الأمّة الإسلامية جمعاء.. مرحلةً تاريخيةً جديدة بالضبط، جديدة كل الجد.. لأننا الآن نعيش مواجهة استعمارٍ بمعنى جديد.. هذا الاستعمار الجديد الذي يُسمَّى الآن في الفقه السياسي المعاصر بـ"العولمة".. هذا الاستعمار يختلف اختلافًا جذريًّا عن الاستعمار القديم الذي كان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الماضي..

الاختلاف بين الاستعمارَين أن الاستعمار الأول كان يستعمر الأوطان، والاستعمار الجديد يستعمر الإنسان.. فالاستعمار الذي استعمر الأوطان كان هدفه الثروات والأموال، وأن يسيطر سيطرةً عسكريّةً واقتصادية وسياسية، ثم ثقافيةً على العالم الإسلامي.. فتأثيره كان أن دمّر البنية الاقتصادية للعالَم الإسلامي، ومزّق وشتّت العالَم الإسلامي عسكريًّا وسياسيًّا.. لكن مع ذلك لم يستطع أن يُطفئ جذوة الروح الوطنيّة

والإيمانية التي كانت عند المسلمين.. فلذلك استطاع المسلمون أن ينهضوا من جديد وأن يقاوموا هذا الاستعمار على مستوى معيَّن..

لكن جاء بعد قرنٍ من الزمان من نهاية القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين من تلك المرحلة إلى المرحلة الآن التي من نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، وأيضًا بالعدّ الهجري من نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري إلى بداية القرن الخامس عشر الهجري، هذه مرحلةٌ فعلاً تَغيّر فيها كلُّ شيء؛ وصار الاستعمار الجديد الآن يستعمر الإنسان قبل أن يستعمر الأوطان. لأنّه حينما يستعمر الإنسان فقد استعمر كلَّ شيء بالتّبع، وقضى على كل أمَلٍ في المقاومة.. لأن الإنسان يُصبح إذن تابعًا وجدانيًّا وذوْقيًّا للغرب وللآخر..

من هنا إذن أعتبر أن مرحلة هي الآن تقتضي وجود شخص أو عدّة أشخاص يقومون بتجديد دين الأمة في وجدانها. إن الدين جديد دائمًا، لكن شوق الدين هذا يحتاج إلى تجديد.. ونجد أن مدرسة فتح الله كولن تستجيب كل الاستجابة لهذا، إضافة إلى الآيات والأحاديث من المؤشِّرات القوية على أن هذه الدعوة بما بذلت وبما أسّست وبما عمَّرتْ فعلاً تُعتَبَرُ جوابًا لهذا الإشكال، وتعبيرًا عن هذه المرحلة بالضبط، لأن كلّ كتُب الأستاذ فتح الله، وكلُّ مشروعه -نعم كلُّ مشروعه- قائمٌ أساسًا على "تجديد الإنسان".. لأنه حينما يجدّد الإنسان يتجدّد كلُّ شيء بالتّبع، فتكُون الشركات، وتكون المؤسسات بسبب أنّه صنَع "الإنسان".. وهذه هي العبقرية الاستراتيجية التي يُمكنها -ووحْدها دون سواها- أن تُواجه الاستعمار الجديد بتجلّياته الثقافية والعقَدية المدمِّرة للبنْية التحتية في العالَم الإسلامي..

دعوة الخدمة والعالم العربي

ماذا تعني دعوة الأستاذ فتح الله كولن بالنسبة للعالم العربي والإسلامي؟ وما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه في ظل التحولات التي تعيشها المنطقة؟

إن الحركة الإسلامية في بداية القرن الماضي بدأت بصورةٍ معيَّنة، واستجابت لظروفٍ معيَّنة، في شخص الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله. كانتْ الظروف آنئذ خاصّة، كانت مرحلة الاستعمار بالمعنى القديم، وأيضًا في مصر الأستاذ حسن البنّا، وبعده الأستاذ سيد قطب رحمه الله، وفي الهند محمد إلياس الحيدَرْآبادي الهندي، ومَن جاء بعده الأستاذ أبو الأعلى المودودي، وغيرُه كثير.. فهؤلاء جميعًا ظهروا في نفس الفترة، ومن المقادير الإلهية العجيبة أن الأستاذ بديع الزمان النورسي كتَب أو بدأ كتابة رسائل النور ١٩٢٨م، في نفس التاريخ بالضبط وفي نفس السنَة، وقبل هذا التاريخ (١٩٢٨م) بأربع سنوات كانت قد سقطت الخلافة الإسلامية ١٩٢٤م.

فإذن هنالك زلزال وقَع للعالَم الإسلامي وتمزُّق كبير جدًّا... انفجار على مستوى كيان وحدة الأمّة الإسلامية، فكان إذن ردُّ الفعل هو هذا، أي هذه الحركة الإسلامية الداعية إلى تجديد دين الأمّة، ومواجة الاستعمار بوجهه العسكري..

طيّب.. هذه الموجة التي ظهرتْ في هذه المرحلة استجابتْ لظروفٍ معيَّنة، وأدّتْ دورًا تاريخيًّا رائدًا ومهمًّا جدًّا.. الآن عندنا مشكلة، وهذه المشكلة هي أن الحركة الإسلامية في العالَم -في العالَم العربي والإسلامي جميعًا- لا تزال تقتات على المرحلة القديمة السابقة، أي أنّ أغلب الحركات الإسلامية في العالَم العربي -في المشرق والمغرب- لا تزال

تسير على نفْس النمط، نمط الحركة الإسلامية التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. هذا النمط إذا لم يتجدّدْ ستكون هنالك مشكلة.. لمَ؟ لأنّ الظروف التي أفرزتْ نموذج الإصلاح القديم تغيّرتْ، فهاهنا ظروفٌ جديدة تستدعي نمطًا جديدًا للعمَل.. ولذلك إن الأستاذ فتح الله بتركيزه على الإنسان قبل الأشياء، وقبل العالَم المادّي، وبتركيزه على العالَم الروحي، يستجيب بكلّ وعْيه وبكلّ عمق لطبيعة المرحلة، لأنّ هذه المرحلة تدمّر الإنسان من حيث هو ثقافة، ومن حيث هو كيان، ومن حيث هو انتماء لحضارة.. فصار الإنسان -مع الأسف الشديد كما نشاهده في كثير من بلاد العرَب، بلاد المسلمين عمومًا- يشتاق ويتمنّى لو كان فرنسيًّا، لو كان أمريكيًّا، لو كان، لو كان.. هذا عدَم الإحساس بـ"الذات" وزهده في الانتماء الحضاري لأمّة الإسلام، مرضٌ خطير جدًّا، سببُه هذه القوّة الإعلامية والثقافية والأيديولوجية التي تنزل على قلوب المسلمين في كل مكان، وتدمّر إحساسَهم بهويّتهم وبانتمائهم الحضاري إلى الإسلام..

إذن المشكل المطلوب هو إعادة التشكيل الوجداني للمسلم، وليس فقط العقل المسلم.. نعم، إعادة تشكيل وجدان المسلم، إحساسُه، ذوقُه، انتماؤه الحضاري.. فإذن هذا الحلّ هو الوصفة التي تستجيب لِمَوعد التاريخ، جاءت مع موعد التاريخ، وتستجيب أيضًا للأصول القرآنية والنبوية..

أحسِب -وأقولها بكل تجرُّأ إن شاء الله- أن الأمّة الإسلامية في كثير من البلاد العربية بشكلٍ خاص، سترجع إلى هذا المنهج، وهي الآن في طوْر المراجعة، لأنّها اصطدمت بمنهجها العتيق ذاك، اصطدمت بالواقع،

اصطدمت سياسيًّا، ثم -هذا هو المؤسف-اصطدمت شعبيًّا مع الناس.. فحينما تَفشَل الحركة الإسلامية في خطاب الجماهير، وتصطدم مع الجمهور ومع الشعب، هذا دليل قاطع على أن هذه الحركة فاشلة فاشلة فاشلة..

فإذن حينما تقع أزمة لحركةٍ ما في البلدان العربية وفي رمشة عين بين عشيّة وضحاها، يتخلّى عنها الشعب، وتتبرّأ منها الجماهير، معنى ذلك أنها لا تملك رأسمال إنساني وجْداني.. فالذي يملك قلوب الناس لنْ يتخلّى عنه الناس ولو في أحلك الظروف.. ولو اصْطدم سياسيًّا، ولو وقعت له مشكلات، ولو دخَل السجون والمنافي، الناس لا يتخلّون عنه، كما لم يتخلّوا عن رسول الله ﷺ في معارِك وفي مواقع شديدة جدًّا.. لأنه حتّى وإن لم يملك السلطان في مرحلة مكّة، كان سلطانًا على قلوب كثيرٍ من الناس ممن تربّوا بدار الأرقم بن أبي الأرقم..

الآن أعرف شخصيًّا أن كثيرًا من الحركات الإسلامية وكثيرًا من الدعاة يُعيدون حساباتهم من جديد، ويُراجعون، وفي كثيرٍ من الأحيان يجِدون أنفسهم مضطرّين للعودة إلى المنهج القرآني.. سَمِّيه ما شئت، المهمّ أنّه في المضمون هو تكوينٌ روحيّ.. تكْوين الإنسان قبل تكوين الجانب الفكْري فقط، أو الاقتصادي فقط، أو الدخول في حزبٍ سياسيّ فقط.. الآن الأمّة ستجد نفسها مضطرّةً -أحبّتْ أم كرِهت ستضطر، لأن الظروف ستُكرهها على ذلك- إلى العودة إلى هذا المنهج..

أحسِب أنه إذا عرَف العرَبُ الأستاذ فتح الله كولن كاملَ المعرفة، فإنّهم لن يجدوا بديلاً ولا أفضل من منهجه.. ليس لأنّه هو "منهج فتح الله" من حيث هو شخص، ولكنه "منهج القرآن الكريم".. لأنّ الرجُل مؤيَّد، له

صلَة بالله جلّ وعلا، إن شاء الله صافيةً، صلة الوِلاية التي في حديث النبي ﷺ القدسي «مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنْتُه بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسْمع به، وبصره الذي يُبْصِر به، ويدَه التي يبْطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه».. فهذا المستوى الراقي العالي الرفيع الذي هو تأمين -نعم هذا تأمين وضمان من الله جلّ وعلا يُنْزله على عبده-، إذا كان عبدٌ على مثل هذا المستوى فيا ويْل مَن تُسَوِّلُ له نفسُه أن تمتدّ يدُه إليه، أو إلى حركته، أو إلى دعوته، لأنه هو مضمون، مضمون من لدُنْ ربِّ السموات والأرض.. فإذن هذا الضمان العالي إذا حصّله العبد فقد حصّل كلَّ شيء، وإذا لم يُحصّله العبد وأخطأه فقد أخطأ كل شيء، وأضاع كلّ شيء.. فهذا المعنى -مع الأسف- هو الذي نفتقده في كثير من البلاد العربية..

العالم الإسلامي وتأويل يوسف عليه السلام لرؤيا الملك

سمعنا منكم مقاربة شيقة حول رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام والمراحل التي مرّت بها الأمة الإسلامية عبر تاريخها. فهل يمكن أن تفصلوا لنا تلك المقاربة؟

هذا كلام سمعتُه من بعض أشياخنا، فقمتُ بتطبيقه على واقع مشروع الأستاذ فتح الله كولن، وهذا الجديد الذي عندي.. وإلاّ فهو ذُكر عند بعض أهل الفضل وبعض أهل العلم وأهل الذكر.. وذلك أنّ تاريخ الأمّة الإسلامية الآن هو تاريخ يمكن أن نقسّمه إلى مراحل ثلاثة:

١-المرحلة الأولى هي مرحلة النهوض والصعود..

٢-ثم المرحلة الثانية مرحلة النزول والانحدار..

٣-ثم المرحلة الثالثة هي مرحلة بدء النهوض، وهي المرحلة التي نعيشها الآن..

المرحلة الأولى: دامت المرحلة الأولى سبعة قرون، بدءً من القرن الأوّل الهجري، أي حيث بدأ النبي ﷺ الدعوة وبناء الدولة الإسلامية الأولى، وما تلا ذلك من فعلِ الصحابة رضوان الله عليهم في العهد الراشد، وما تلا ذلك من الخلافات الإسلامية المختلفة إلى القرن السابع الهجري..

المرحلة الثانية: في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري وقَع للأمّة الإسلامية زلزال.. لمْ يكن قد بقي من الأندلس في القرن الثامن الهجري إلا شريط غرناطة.. كانت قرطبة قد سقطت بيد الإسبان، ووقع احتلال واستعمار يسمّونه في تاريخ الأندلس بـ"معارك الاسترداد" أي أن النصارى كانوا يستردّون الأندلس وما بقي آنئذ في القرن الثامن الهجري إلا شريط غرناطة. وكان الإمام أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله يؤرّخ من خلال فتاواه للوضْعيّة الإيمانية والدينية التي كانت آنئذ مُنهارةً جدًّا، حيث كان يُستفتَى في الشخص يُسْلِم ويَكفر، ويكفر ويُسْلم.. فشخصٌ مثلاً، كان مُسلمًا ثم ارتدّ وصار نصرانيًّا، ثم مات أبوه، ثم هو يَعرض على إخوته بعد ذلك أن يُسْلِم بشرط أن يأخذ نصيبه من الإرث.. فالوضعية كانت تدلّ على أنّ الإنسان ما صار انتماؤه للإسلام انتماءً حقيقيًّا في مرحلة السقوط والانهيار للأندلس.. في تلك الفترة بالذات كان العالَم الإسلامي في الشرق تحت وطأة المغول، لأن القرن الثامن الهجري فيه عاش ابن تيمية في الشرق وتلامذته الذين واجهوا المغول وإحراق بغْداد

ومكتبة بغداد. كان هنالك انهيار عسكري وحضاري في العالَم الإسلامي في القرن الثامن الهجري..

فإذن سبعة القرون الأولى كانت قرونًا على العموم في هذه القرون الثلاث الأولى خيّرة، ولكن تلاها إشعاع حضاري وعسْكري كبير استفاد من الانطلاقة الحضارية القوية التي بدأت في القرون الهجرية الثلاثة الأولى والتي أسّسها سيدُنا رسول الله ﷺ.

لكن مع القرن الثامن الهجري بدأ الانهيار، فبعد وفاة الإمام الشاطبي بقرن واحد سقطت الأندلس تمامًا، وما بقي فيها موضع إصبع للمسلمين.. ودخل الإسبان إلى المغرب وتونس والجزائر، وصار يحتلّون شواطئ المغرب وشواطئ العالَم الإسلامي الذي في مُقابلتهم. وحدَث انهيار في العقائد، وفي الفهم للدين، وانتشرت الخرافة في المشرق وفي المغرب، ولم يزل العالَم الإسلامي في انهيار وتردٍّ مستمرّ طيلة القرن الثامن والتاسع والعاشر، وهكذا إلى أن تمّت سبعة قرون كاملةً إلى حدود القرن الرابع عشر الهجري الذي كان هو قرن الاستعمار القديم في العالَم الإسلامي.

المرحلة الثالثة: إذن نحن الآن في بداية قرنٍ جديد وهو القرن الخامس عشر..

هذا الوضع الآن أشبه ما يكون برؤيا يوسف عليه السلام في قصته التي عُرضت عليه النازلة التي كان قد رآها الملك -ملِك مصر آنئذ- وأوَّلَها يوسف عليه الصلاة والسلام. فذلك التأويل الذي شرح به يوسف الوضع آنئذٍ في مصر ينطبق -لكن بعدّ القرون لا بعدّ السنوات- على تاريخ الأمّة الإسلامية..

وليس عبثًا في كتاب الله جلّ وعَلا -هذه من الإشارات واللطائف التي يذكرُها ساداتنا العلماء- أن ترِد بعض الإحصاءات أو بعض الأرقام أو بعض العدّ أو بعض الإشارات في كتاب الله هكذا فقط لمجرّد التاريخ، أبدًا.. ما من مسألة ذُكرتْ في الكتاب -ولو تعلّقت بعبادة العجْل عند بني إسرائيل، أو أي شيء- إلاّ وفي ذلك دليل على أن ذلك المرَض -إن كان من الأمراض- ستُصابُ به الأمّة الإسلامية في وقتٍ ما، وتحتاج إلى عِلاج يُؤْخذ من القرآن الكريم.. أو إذا كان صفةً إيجابية أو دواءً، دليل على أنّ ذلك الدواء ستحتاجه الأمة الإسلامية في وقتٍ ما، في المستقبل.. ومن ههنا ينطلق بعض العلماء فيقولون بأنّ "النسخ" في القرآن بمعنى أن هذه الآية الفلانية أو الكلمات أو الأحكام الشرعية الفلانية في هذه الآية أو تلك، "نُسِخت" بمعنى "أنها عُطِّلت من العمَل، ولا فائدةَ منها ألبتّة"، هذا غير صحيح مطلقًا، ولا يجوز عقيدةً ولا عقلاً أن يُنْسَبَ مثلُ هذا الأمر لله ﷻ.. لا يجوز عقلاً ولا شرعًا أن يكون في كتاب الله آية لا فائدة منها، تُتْلى فقط.. لا، هذا لا يجوز.. فلذلك ما من آية حتّى ولو كانت منسوخةً، فمعناها أنّها باقية تُتْلى في القرآن، معنى أنّ الأمّة ستحتاج إلى ذلك الحكم في وقتٍ ما.. ربّما في مرحلة إعادة البناء، أو في أيّ وقتٍ، ما ترَكَ اللهُ جلّ وعَلا تلك الآيةَ إلا لحكمة، أي أننا سنحتاجها في وقتٍ ما..

فإذن القصص في القرآن ليس معناها حكاية الماضي فقط، هذا لا يجوز شرعًا وعقلاً على الله جلّ وعلا.. نعم في هذا المعنى حكاية الماضي، ولكن فيه أيضًا أننا كأمّة سنحتاج فعليًّا وعمَليًّا لبعض الحلول الموجودة في ذلك القصص..

وأحسِب أنّ هذا التأويل اللطيف وأن هذه الإشارة يوجد فيه معنى،

على أنّ هذا العدّ له سرّ، والذين يطبّقون هذا على واقع الأمّة الإسلامية اليوم، فيه نوع من مُقاربة الحقيقة..

أعود إلى القصّة، حينما قال يوسف عليه السلام ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾(يُوسُف:٤٧).. إذا أخذنا السنَة بالقرن في تاريخ الأمّة الإسلامية، نعم إذا فهمنا السنوات المذكورة بعدّ القرون: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي على لسان يوسف عليه السلام.. فهذا السبع السنوات للزرع، بمعنى أنه سيكون هنالك خصب، وسيكون نماء.. هذا خصب سيستمر سبع قرون من تاريخ الأمّة الإسلامية، زرعنا سبعة قرون دأبًا فعلاً.. ثم الذي حدث هو أنّ السبع الثانية كانت على العكس تمامًا، أي أنها كانت تستنزف وتأكل من السبع الأولى، والله جلّ وعلا وصَف ذلك وقال: ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، ووصف سبع السنوات الأخيرة في قصة يوسف عليه السلام بأنهن ﴿عِجَافٌ﴾ أي أنّ هنالك ضعف، هنالك انهيار، فهذا الضعف والانهيار سيتغذّى من السنوات السابقة أو بالأحرى في التاريخ من القرون السابقة، أي تُدمّر ما كان بُنِي.. ولذلك سبع بَقَرات سمان كان يأكلهن سبع عِجاف.. فالقرون العِجاف أكلتْ ما بنينا من السبع العِظام السِّمان.. فإذن كلُّ البناء الذي بُنِي في سبعة قرون انْهار أيضًا في سبعة قرون.. ثم جاء عامٌ من بعد ذلك ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، فهذا العام هو ما يقابل القرن بهذا العدّ إذن.. إذن سبعٌ في سبعٍ، في عام؛ أي سبعة قرون، في سبعة قرون، في قرن، وهو الخامس عشر.. فهذا هو "الوتْر" الذي ستنطلق منه الأمّة من جديد، وهذا العام ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ فيأتي غوث، وخيْر من الله جلّ وعَلا، ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي سيُنْتجون الخيرات والبركات..

وأحسِب أن هذه الدعوة المباركة للأستاذ فتح الله كولن الذي ترعرعت فيه من الموقع الجيوسياسي الذي تحتلّه بلد تركيا باعتبارها موقعًا يربط القارّات الكثيرة، جاء في وسط آسيا، ووسط إفريقيا، أي بين وسط إفريقيا وآسيا وأوروبّا.. هذا الموقع لا يُوجد لدولةٍ إسلاميةٍ أخرى.. ولذلك من هذا الموقع يمكن أن يقع الإرسال لكلّ القارّات في كلّ مكان.. ثم وجود الأستاذ الآن في أمريكا، هذا له دلالة إذن، وبحمد الله بالخطاب المتميّز الروحاني الذي يعبّر عن جوهر الإسلام بما فيه من أخوّة، ومن حبّ، ومن سلام، ويُخاطب الإنسان أنّى كان؛ مهما كانت ثقافته، مهما كانت لغته، مهما كانت جهته.. هذا الخطاب العالمي الحق الذي غير متأثّر بالظروف النفسية والاجتماعية التي تقع للعالَم العربي والإسلامي.. في العالَم العربي عندنا هنالك مشكلة أن كثيرًا من الدعاة متأثّرون بما يقع عليهم من مظالم، نعم حقيقة هي مظالم كثيرة وشديدة، لكن ردّ الفعل فيه روح الانتقام.. ولكن الداعي إلى الله جلّ وعلا إذا لم يستطع أن يتخلص من روح الانتقام، سيبقى جُزئيًّا، لن يكون أبدًا كُليًّا.. ودعوة رسول الله ﷺ تميّزت بهذا، فهو قُدْوتنا الأوّل، حينما كان ينزل الوحي على رسول الله بمكّة وهم مضطهدون، مغلوبون على أمرهم، تُقَطَّع أوصالُهم، يُقتَّلون، يصلَّبون، كما هو معروف في السيرة النبوية، قال لهم الله جل وعلا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾(النِّسَاء:٧٧).. وهذا المنهج الذي يقوم عليه الأستاذ فتح الله كولن كأنّي به يستجيب لهذه الآية العظيمة التي تربّي الإنسان وتُعطيه طاقةً عاليةً جدًّا، كيف تستطيع أن تكون تحت الظروف الظالمة المظْلِمة، تُضْرَب ولكن في نفس الوقت لا تستجيب للاسْتفزاز، بل تَبْني.. هذا لا يكون لإنسان عاديّ يا أخي

الكريم.. إنه صعبٌ، صعبٌ جدًّا أن يستطيع الإنسان أن يَكْظِم غيظَه، وأن لا يستجيب للاستفزاز.. فحينما نجد شخصًا وجماعةً تفعل هذا، فمعنى ذلك -كما ذكرتُ وأُكرّر- أن هذا الأمر غير بَشَري، هذا الأمر فيه إلْهام بما علِم الله جلَ وعلا من الإخلاص في قلْب الرّجل.. ولو لم يكن مُخْلِصًا لَما جاءَه هذا السنَد وهذا السداد وهذا الرشاد.. لأن هذه نعمة يُعْطيها الله جلّ وعلا لمن أحبّ، وقدْ أحبّ رسولَه وأصحابَه من قبلُ فأعطاهم هذا المدَد وهذه القوّة العظيمة.. قوّة حقيقة، قوة تستطيع أن تضبط نفسك وتستطيع أن تكون كما جاء في الحديث: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد مَن يملك نفسَه عند الغضب»".. هذا المعنى العظيم هو الذي يمثل الإنسان الحضاري الراقي الذي يستطيع أن يخاطب العالَم الآن، ولذلك لن يكون العالَم العربي وحدَه في حاجة إلى هذا الخطاب، بل الكُرَة الأرضية كلُّها عرَبُها وعجَمُها، والله أعلم..

اللقاء مع الأستاذ فتح الله كولن

سؤال أخير.. لو دخل الأستاذ الآن من هذا الباب ورأيتَه ماثلاً أمامك ماذا كنتَ ستقول له؟

في الحقيقة ربما لن أستطيع أن أتكلّم، ربّما أقوم بفعل وليس بكلام، وأنا تخيّلتُ هذا في نفسي.. عندي شوقٌ كبير في أن أُعانقه، ولكن أنا أعلم أنه في الحقيقة ما يَنبغي أن يُعانَق، ينبغي أن تُقَبَّل يدُه، ولكن هكذا أنا، لي شوق كبير في أن يَلتصق صدري بصدره، وأن أُحسّ نبضات قلبه تدقّ على نبضات قلبي، عسى أن أَقْبِس من ذلك السرّ الذي عنده.. فلوْ يأذن لي في هذا فعلاً سأكون محظوظًا جدًّا، مع أنه ليس من الأدَب أن

يعانق شخصٌ مثلي مثلَه، وإنما الأدَب أن تُقَبَّل يدُه..

أما الكلام فلا يمكن أبدًا أن تكون هنالك جملة تُعبّر عن لقاء هذا الرجل، وإنّني أدعو في نفسي وفي خلْوتي بأن لا يحرمني الله جلّ وعلا لقاءه، لأن لقاءه بالنسبة لي فيه معنى خاص.. فإذا صدَق اللقاء وحصل، فمعنى ذلك أنّني نجحتُ في الذي أفكّر فيه.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

obeikandl.com